قصص الصحابة

إعداد
عماد الشافعى

المركز العربى الحديث

١٠٣ شارع الإمام على، ميدان الإسماعيلية، مصر الجديدة،
القاهرة ت: ٢٧٠٦٠٤٨١

إهـــداء

إلى الناشئة المسلمين في كل مكان

وإلى طفلتيَّ إسراء وآلاء ...

آمل أن يجدوا جميعاً في هذه القصص

دروساً لصلاحهم ، وفي أعلام الصحابة

القدوة الحسنة

عماد الشافعي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هَذه سُطورٌ مُضيئةٌ من حَياة بَعض الصَّحابة . . أعلامُ الهُدى، الذَّين بَذلوا أرْواحَهم الطَّاهرَة . ودماءَهُم الذَّكيةَ في سَبيل الله لنشر الإسلام . نجدُ في سيرتهم أروعَ قصص الإخلاص والوفاء والفداء .

وقد حَدا بي الشَّوقُ للكتابة عنهم، كَتبتُ عن خالد بن الوليد، سَيفُ الله، وعن سَعد بن أبي وقَّاص القائدُ الفاتحُ، وعَن عَمرو بن العاص رمزُ الذَّكاء والدَّهاء، وسَلْمان الفارسي «الباحثُ عن الحقيقة»، وبلال . . أولُ مُؤذن في الإسلام، ومُصْعب، وابي ذرٍّ، وحَمزة سيد الشهداء . .

أرجو أن أكونُ وفقتُ في عَرض هذه القصص بَبساطة وإيجاز حتى يجدَ فيها النَّاشئةُ المسلمونَ القُدوةَ الحَسنةَ، وآملُ أن تزيدهُمُ حُبَّاً لدينهم، وتَمسُّكاً بعقيدتهم .

وما توفيقي إلا بالله..

عماد الشافعي

خالد بن الوليد (رضى الله عنه)

كَانتْ مكَّةُ سَاكنةَ سَاعةَ الظهيرة، والرُّعاة يُريحونَ شياهَهُم وإبلَهُم تحتَ ظلال الشَّجر، بَيْنما تَحلَّق بعضُ الفتية فى سَاحَة الْمصارعة يُشاهدونَ باهتمام الصِّراعَ بين خالد، وابن الخَطَّاب أقْوى فتْيان قُريش. نَظرَ خالدُ إلَى الفَتى الطَّويل بحدَّة، وكان كُلٌّ منهما يَدورُ أمامَ الآخر ببطء وحَذَر، ويُفتشُ بعَينيه عن ثَغْرة للهُجوم: فكلاهُما مُصَارعٌ قوىٌّ ومُراوغٌ مَاهرٌ.

هَجَم خَالدُ على الفتى الطَّويل هَجمةً سَريعةً، وقَصَفهُ بقدمه، فَهوى الفَتى الطَّويل على الأرْض كما تَنْهالُ صخرةٌ كبيرةٌ من قمة جَبل. وسُمعتْ طَقْطَقة بين دَوىِّ الْمصفقينَ، ثُمَّ سَادَ الصَّمتُ لَحظةً.

مَرَّتْ دَقائقُ، وخَالدُ يحُدقُ بفزع فى وَجْه صَديقه الذى كان يَتألَّمُ، ويَمسكُ سَاقَهُ التى كُسرتْ، ويعْتذرُ عن قُوة الضَّربة التى لم يكنْ يَقْصدُها.

كانَ خالدُ بن الوليد وعُمرُ بن الخطَاب صَديقين وزَعيمين للفتْيان فى مكَّةَ، وكانا - شأنَ فتيان مكَّةَ - يتدربَان على الْمصارعة والْمُبارزة لإظهار الفُروسية والشَّجَاعة.

واتكأ ابنُ الخطاب على سَاعدِ خَالد بن الوليد حتى وصَلَ عُمرُ إلى

دَاره . نَشأ خالدُ بن الوليد فى أسْرة ثَرية ، فأبوهُ الوليدُ بن المُغيرة كان من رُوساء قُريشٍ وأصْحابِ النفُوذِ والرأىِ فيها ، وكان من أكَثرِ أعْداء الإسْلاَم

وكاَن النَّاسُ حينئذ يَدخلونَ فى الدِّين الجدَيد خُفْيةً ، وعندما دَخَل عُمر بن الخطَّاب وَحَمزةُ بن عبد المُطلب فى الإَسلامِ وجَدتْ قُريشُ نَفسها فى خَطَر .

وأخيراً استْقَّر رَأىُ قُريشٍ على قَتْل مُحمد .

وفى مساء اليوم المُخطط لإغتياله ، غادَر النبىُ منزلهُ وهاجَر إلى المدينه بصُحبةِ أبى بكرِ الصَديقِ ، وأصبحتْ المدينةُ مَوْئلاً للدين الجديد .

ماتَ الوليدُ بن المُغيرة وورثَ خالدُ عنه ثَروةً طائلةً جعلتهُ يعيشُ هَانئاً ، مُتفَرغاً للتدريبِ علَى الفُروسية واستعمالِ السِّلاح حتى جَعَلتهُ القَبيلةُ قائداً لسلاحِ الفرسان .

وَوقعتْ غَزْوةُ بدر ، وكانَ خالدُ وَقْتها مُسافراً مع قَافلة للتجارة ، وانتصَر جيشُ المُسلمينَ قليلُ العدد على جَيْش المَشركينَ بعد قَتالَ عنيف لم يَدُمْ سوَى ساعةً أو ساعتين . فرَّ بعدها جَيشُ قُريشٍ مَن مَيدانَ المعركة بشَكل فَوْضوىٍّ ، أُسرَ منهم سَبْعونَ وَقتل مثلهُم ، وكَان من بين قَتْلىَ المُشركينَ سَبعةُ عشرَ قتيَلاً من بنى مَخزوْمَ أبناءُ عَمٍّ وأبناءُ شقيقات خَالدِ ، وأُسرَ وليدُ شقيقُ خالدِ .

وعادَ خالدٌ بن الوليد من سَفره يحترقُ قلبُه غَيظاً وحُزْناً.

وعقدتْ قريشٌ مُؤتمراً لدراسة هَزيمتها أمامَ المُسلمينَ، حضرهُ زُعماءُ قريش، وكُلٌ منهم فَقَد شَخصاً عزيزاً في موقعة بدر. وتعهَّد الجميعُ على أَخْذ الثَّأر وعلى تجهيز حَمْلة قوية لشنِّ هجومٍ ضدَّ مُحمد، وأُنْتُخب بالإجماع أبو سُفيان قائداً لجيش قُريش.

أعدَّ أبو سُفيان جَيْشاً هَائلاً للثأر من مُحمد، وجَهَّز النبيُّ جَيْشاً من المُسلمين، والتقى الجَيْشان عند جَبلَ أُحد، وقَاتلَ المسلُمونَ قتالاً عَنيفاً مما جَعَل المُشركينَ يفرون تاركينَ سلاحَهم ومَتَاعهُم، وفرحَ المُسلمونَ بالنصر، ونَزلَ الرُّماةُ من فَوق الجبلَ مُسْرعين لجمع الغنائم برغم تَحْذير النَّبي لهمُ بعدمِ تَرْك أماكنهم.

وهُنا انكشفَ جَيشُ المُسلمينَ، ورأى خالدُ بن الوليد ذلكَ، وكانَ قائداً للفرسان، فانطلقَ بفرقته وصَعَد جبلَ أُحد وقَتلَ من بقيَ من الرُّماة علَى الجبَل، وراحُوا يُصوبُّونَ سهامهُم ورمَاحهم إلى المسلمينَ حتى اضطربَ الجَيشُ وتَفرَّق المُسلمونَ، وبسرعةِ أُنقلبَ نصرُ المسلمينَ إلى هزيمة.

فَشَلتْ مكةُ في القَضَاء على مُحمد ودَعْوته، وبدأ خالدُ بن الولَيد يُفكرُ في أمر الدَّعوة الجديَدة، وقدَ خَلَا إلى نَفسه يَوْماً وراحَ يُحدِّثُ نفسه: «والله لقدْ استقامَ الأمْرُ للمُسلمينَ، وإن مُحمداً رسولٌ من عند الله.. فإلى متى هذا العنادُ السَّخيفُ يا ابنَ الولَيد؟!

ما الذى يمنعكَ من الذّهابِ إلى النّبى وإعلان إسْلامَكَ؟»

ولَمْ يَطُلْ به التفكيرُ، فقد عَزمَ خالدُ بن الوليد على السَّفر إلى المدينة، فأخذَ درْعهُ وسلاحهُ وفَرسهُ وانطلق إلى المدينة، وفى الطَّريق قابلَ عُثْمانُ بنَ طَلْحة وعَمرو بن العَاصِ، وكانا مُتوجهين إلى المَدينة لنفس الغَاية.

دخل خالدُ أولاً، واستقبلهُ النبىُ بوجه طَلْق، وقالَ لهُ:

- قد كُنتُ أرى لكَ عَقْلاً رَجَوتُ ألاَّ يُسلمك إلاَّ إلى خير.

فقالَ خالدٌ بعد أن شَهدَ أن لا إلا اللهُ، وأن محمداً رسول الله:

- «استْغفَر لى يا رسولَ الله كُلَّ ما أوْضعتُ فيه من صَدّ عن سَبيل الله.

فقال النبىُ: إن الإسلام يُمْحُ ما كانَ قَبلهُ.

قال خالدُ: يا رسولَ الله ادعُ اللهَ لى.

فقال النبىُ: اللهَّم اغفر لخالد بن الوليد كُلَّ ما أوَضْعَ فيه من صَدّ عن سبيلك. وأعْطى النبىُ خالداً أرَضْاً ليبنى عليها دَاراً، واستقَّر المُقامُ بخالد فى المدينة، وصَارَ من جُنْد رَسُول الله.

بَعثَ النبىُ ﷺ مبْعوثاً إلى أمير بصْرب الغَسَّانّى وحَمَّلهُ رسالةً تدعُوه لاعتناق الإسلام. وعندما وَصلَ المبعوثُ إلى مُؤْتةَ اعترضهُ شُرَحْبيلُ بن عمرو من قبيلة غَسَّان وقَتَلهُ، وأثارَ هذا الإعتداء الشائنُ على المَبعُوث الدّبلوماسىّ لَرسول الله الغَضَب فى المدينة وأعَّد النبىُ

حَمْلةً لتأديب قبيلة غَسَّانَ، وخَرجَ ثلاثةُ آلاف مُقاتلٍ من المسلمينَ يقودهمُ زيدُ بنَ حارثةَ، وكانَ خالد بن الوليد جُنْدياً فى هذا الجيش.

وجَهَّز الرُّومُ والغَساسنةَ جَيْشاً هَائلاً قُوامهُ مائتى ألْف مُقاتلٍ، والْتقى الجَيشْان عَند قَرية مُؤْتةَ، من قُرى البْلقاء.

ورَدَّد المسلمونَ كلمات تُثيرُ الحماس وتُلهبُ المشَاعَر نحو النَّصر، أو الشَّهادة فى سَبيل الله. وبدأتْ المعركةُ والْتَحم الجَيْشان، فقاتل زَيدُ ابن حارثةَ براية رسول الله حتى قُتلَ، ثُمَّ أخَذ الرايةَ جَعفرُ بن أبى طالب فقاتلَ بها حتى قُتلَ. وبدأت الفَوضى تَدبُّ فى صُفُوف المُسلمينَ، فجيشُ العدوَّ هائلُ العدد، وأخَذ الرايةَ بُسرعة عبدُ الله بن رَواحة وصاحَ فى المُسلمينَ يُعيدُ تَنْظيمهم، وقاتلَ باستماتة حتى قُتلَ أيضاً.

كان الرُّومُ والغَساسنةَ يَعْجبوُن من حَماس وشجاعة المسْلمينَ، وأخَذ الرَّايةَ ثَابتُ بن أرْقم وصَاحَ: يا مَعْشَر المُسلمينَ اصْطَلحوا على رَجُل منكم لقيادة الجَيش.

قالوا: أنتَ.

قال: ما أنا بفاعل. فاصْطَلح النَّاسُ على خَالد بن الوليد فأخذَ الرَّايةَ وتَولَّى القيَادةَ. كانَ المَوقفُ خَطراً ويُوشكُ أنَّ يُؤدى إلَى هَزيمة تامَّة للمُسلمين.

وبمهارة أعادَ خالدُ تَنْظيمَ الجَيشِ وهاجَم بعُنفٍ حتى قُتلَ القائدُ

الغَسَّانى على يَد «قُطْبة» قائدُ مَيْمنة جَيْش المسلمين، فحدثتْ بعضُ الفَوضْى فى صفُوف العَدوَّ، وأنسحبَ جيشُ الغَسَاسنة قليلاً، وتَراجعَ المسُلمونَ قَليلاً، وكِلا الجَيْشين كان يلتَمسُ الرَّاحةَ وإعادةَ تنظيمِ صفُوفه.

وأدركَ خالدُ بن الوليد خَطورةَ مُواصلة القتال ومُجابهة جَيش الرُّوم الهائل العدد، وآثَر الإنسحابَ الوقائىِّ بجَيشِ المُسلمين. وأعدَّ خُطةً للإنسحاب ليَحُول دُونَ هلاكه.

وفى المساء سَحبَ خالدُ جيشَهُ من مُؤْتة وأبْقى السَّاقةَ (مؤخرةُ الجَيْش) لتحمَى انسحابهُ، وجَعَلهم يُحْدثون بطبولهم ضَوْضاءَ، ويُثيرونَ بخيولهم الغُبارَ، ليُوهمَ الأعداءَ أن مَدَداً قوياً وصَلَ إلى المُسلمينَ فى الليل. ونجحتْ الخُطةُ!.

وفى الصباح كان جيشُ المُسلمينَ يَسيرُ فى الصَّحراء مُتجهاً نحو المدينة، وخالدُ فى المؤخرة يَحْمى بفرقةٍ من الخيَّالة جيشَهُ من مُطاردة الرُّوم.

وعندما وَصلَ الجيشُ إلى مَشارف المدينة، كانَ النَّبىُ فى استقبالهم وكان المُسلمونَ فى حالة نَفسية سَيئة، وعندما عَلم النبىُ بأحداث المعركة التى كُسرَ فيها تسعةُ سُيوف لخَالد فى مُبارزات عنيفة، حَزنَ لموت المُسلمينَ وَهمُ من خيرة الصَّحابة، وأثْنى على براعة خالد فى إدارة المعركة وقالَ مُطمئناً النَّاسَ:

«أخذَ الرايَة زيدُ بن حارثة فقاتل بها حتى قُتلَ شَهيداً، ثُمَّ أخذها جَعْفرُ فقاتلَ بها حتى قُتلَ شهيداً، ثُمَّ أخذها عبدُ الله بن رَواحة فقاتلَ بها حتى قُتلَ شَهيداً، ثمَّ أخذ الرَّايةَ سيفٌ من سُيوف الله، ففتحَ اللهُ على يديه».

وكان هذا اللَّقبُ أعْظمَ وسامٍ يحصلُ عليه خالدُ بن الوليد «سيفُ الله».

مضَى سيفُ الله «خالدُ بن الوليد» جُنْدياً مُخْلصاً فى جَيش المُسلمينَ بقيادة النبىِّ ﷺ، يَنْتقلُ من نصرٍ إلى نَصْرٍ، ويَتعلمُ من النبىِّ.

ففى فتح مكةَ كان خالدُ على مَيْمنة جيش النبَّى، وتصدَّى للمُشركينَ يومَ حُنَين وقَتَل منهم عَدداً، وبعثهُ النبى فى ثلاثين من أصحابه لتحطيم الأَصْنام وعندما توفى النبى ﷺ، ولَحَق بالرَّفيق الأَعْلى ارتدَّ بعضُ العرب عن الإسلام، وامتنعَ بعضهمُ عن دَفْع الزكاة، فتصدَّى لَهمُ أبو بكرَ خليفُه رسولَ الله بقيادة خالد.

وكان لابُدَّ من إخماد هذه الفتنة التى أَضْرمها المرتُدونَ، وكانتْ مُجابهةُ مُسيلمة الكذَاب الذى ادَّعَى النُّبوة من أكبر المعَارك.

والتقى جَيْشُ خالد بن الوليد بجيش مُسلمة الكذَّاب فى عَقْرباءَ، ودارَ قتالٌ رَهيبٌ سَقطَ فيه شُهداءُ من المُسلمينَ.

ورأى خالدُ جنودَهُ يتساقطونَ تحتُ سُيوف الأعداء، وأن المعركةَ تكادُ تُحسْمُ لصالحِ الكَافرينَ، وكان المسْلمونَ يقاتلونَ فى دِفاع

مُسْتميت فأرادَ خالدُ أن يعرفَ نقاطَ الضَّعف فى جيشه الذى تَرَنَّحَ من هَوْل المُفاجأة، فأعاد بُسرعة تنسيقَ الجُند وصاح: امْتَازوا أيها المُسلمونَ لنرى اليومَ بَلاءَ كُل حَىٍّ.

فمضَى كلُ فريق تحتَ راية.. الأنصارُ تحتَ راية، والمُهاجرونَ تحتَ راية، وكُل قبيلة تحتَ رايةٍ. وهُنا اشتعلتْ الأَنفسُ حَماساً وأصبَح كَلُ فريق يقاتلُ باستماتة طَلَباً للنَّصر، أو نَيْلاً للشَّهادة.

وأخذ خالدُ يصيح مُكَبِّراً يلُهبَ المَشاعَر، ويُقوى العَزائمَ، وتحوَّلتْ دَفَّةُ المعركة لصالح المُسلمينَ، وتسَاقَط الكَافرونَ بالمئات، وهَرب مُسيلمةُ منَ ميدانَ المعركة إلى مكان يُسمى حديقةُ الموت. وأغلقوا عليهم البابَ.

وحمَل المسلمونَ البَّراءَ بن مالك فاقْتحمَ عليهمُ البابَ حتى فَتحهُ للمُسلمين فدخلُ المُسلمونَ المدينةَ كالسَّيل العَرِم يَحصُدونَ رُؤسَ الكَافرين حَصدًا، فى قتال عنيف قُتلَ فيه مُسيلمةَ.

وأخمدتْ نار الفتنة فى الجَزيرة العربية بعد انتصارِ المُسلمينَ فى حروب الرِّدة.

كان خالدُ بن الوليد يُعسكرُ بجيشه فى اليمامة للرَّاحة بعد المعارك الدَّامية، عندما جاءهُ البريدُ من الخليفة أبى بكر الصَّديق: «سرْ إلى العراق حتى تَدْخلها وقاتلْ أهْل فَارس، وليكُنْ هَدَفُكَ الحيرةَ».

فأرسلَ خالدُ إلى الخليفة يطلبُ منهُ المدَدَ، فقد ترك الآلاف من

الجُندْ الجَيشَ وعادوا إلى المدينة وما حَوْلها بعد المعركة.

وعندما وصَلَ كتابُ خالد إلى الخليفة، أرسلَ إلى شاب شُجاع يُدْعى «القْعقاعُ بن عمرو» لتعزيز جَيْش خالد، كما أرسل إلَى المُثنىَّ ومَذْعور بن عُدى يأمرهُما بتجميع المُحاربين تحت إمْرة خالد.

وقَبْلَ أن ينطلق خالدُ بجيشه إلى العراق، أرْسلَ إلى وُلاة كسْرى: «أما بعدُ. فأسَلمْ تَسْلم، أو اعْتقد لنفسك ولقومكَ الذّمةَ وأقْرر بالجزية، وإلا فلا تَلُومنَّ إلا نفسكَ. فقد جئتكُ بقوم يُحبونَ المَوْتَ كما تُحبونَ الحياة».

وقرأ هُرْمز ـ الحاكمُ الفَارسىُّ ـ كتابَ خالد بسخرية وغضَب، وأبلغَ الإمبراطور الفارسىَّ «أرْدشير» بتهديد خالد، فصمَّمَ على أن يُلقِّنَ هؤلاء العَرب دَرْساً لا يَنْسوهُ.

أدْركَ خالدُ بعقليته الحَربية قُدرةَ جَيشْ الفُرس وتَسلُّحه، فَناورَ فى الصَّحراء قليلاً حتى أجْهدَ جيشَ الفرسُ. والتقَى الجيشَان عند بلدة تُدْعى «كاظمةَ»، وبدأتْ المعركةُ بمارزة بين القائدين خالد وهُرمْز على الأرْض الفَاصلة بين الجَيْشين، وكان هُرْمزُ قد دَبَّر مُؤامَرةً، وهى أن يُنادى على أرْبعة رجال فى اللَّحظة الحاسمة لاغتيال خَالد. وعندما تصارع القائدان وجَد خَالدُ نفسهُ ومعه هُرمُز مُحاطينَ بعدة رجال أشَّداءَ من الفُرْسَ، وبُسرعة أدَارَ خالدُ خَصْمهُ تُجاهَهمُ كدرع يَحْتمى به، وفى هذه اللحظة لمحَ القعقاعُ انْدفاعَ الرِّجال الأربعة نحو

المتُصارعينَ فأدركَ غَدْرَ القائد الفارسيِّ، فانطلقَ كالسَّهمِ وهجمَ على رجال هُرمز في اللحظة المُناسبة وقَتَلهم جَميعاً.

وانفردَ خالدُ بهرمز فقتلهُ، ثُمَّ أمر الجيشَ بالهُجوم. فانطلقَ المُسلمونَ بحماس شديدٍ للثَّأر من الفُرس الذين حَاولوا الغَدْر بخالد. وفَرَّ الفُرسُ من أرض المعركة بينما وَقَعَ الجنودُ المَربوطينَ بالسَّلاسل فَريسةَ للمُسلمينَ. وانتهتْ المَعركةُ بنصرٍ شَاملٍ للمُسلمين، وكانتْ بدايةَ قوية لعدة فُتوحات غالية.

أراحَ خالدُ جيشهُ بضْعةَ أيام ثُمَّ انطلقَ يدُكُّ حُصونَ الفُرس في النَّجف وأُلَّيس ودَوْمة الجندْل والمزار حتى وَصلَ إلى الحيرة.

واتَّخذ خالدُ بن الوليد مدينةَ الحيرةَ مَقراً لقيادته، وأرسلَ إلى الخليفة في المدينةَ يُخبره بالانتصارات.

فَسُرَّ أبو بكر الصديق وقال لأصاحبه: «عَجَزتَ النسَّاءُ أن يَلدنَ مثلَ خالد»

وصَل البريدُ من الخليفة إلى خالد بن الوليد جاء فيها: «سرْ حتى تصلَ جموعَ المُسلمينَ في بلاد الشَّام، فهمُ في حالة من القلق، وإنني أُعيِّنُكَ قائداً على جُيوش المُسلمينَ، وآمركَ أن تقْاتلَ الرُّومَ».

وقَسَّم خالدُ بن الوليد جَيشهُ إلى قسْمين، وسلَّم نصْفهُ إلى المُثَّنى أبن حَارثةَ وتركهُ على العراقَ، وعقَد اجتماعاً لقادة جَيْشه.

علم خالدُ أن الخليفة قد أرسلَ جُيوشاً لفتح الروُّم بقيادة أبو عُبيدةَ

ابن الجرَّاح، وعُمرو بن العاصِ، وشُرَحْبيلُ بن حَنسةَ، ومُعاوية بن أبى سُفيان.

وأرادَ امبراطورُ الرُّوم مُصالحَة المُسلمينَ وعدمَ الدُّخول معهم فى حُروب خاسرة أُسْوةً بما حدثَ فى العراق. لكن وزراءه وقوَّادهُ أصرُّوا على القتال وأعَدُّوا للقتالِ جَيْشاً هائلاً قُوامه أكثرَ من مائتى ألف مُقاتل.

وعندما أرسلَ قادةُ المُسلمونَ إلى الخيفةِ بالموقف قالَ: «والله لأشْفينَّ وَسَاوسهم بخالد»

وكانَ على خالد أن يتحرَّك بأقصى سُرعة إلى الشَّامِ لتولىِّ قيادة قُوات المُسلمين هُناكَ فى منطقة بصْرى والجابيةً.

قالَ خالدُ لقواده: إن الموقفَ فى الشام خطرُ والروم قد عَبَّأ جُيوشَهُ ورسالة الخَليفة واضحةُ. أىْ الذّهابُ إلى هُناكَ بأقصى سُرعة، وهُناكَ طريقان مَعروفان، الأولُ: الطريقُ الجنوبى وهو طريقُ القوافل يمرُّ عبْرَ دَوْمة الجَنْدل. وهو طريُق آمنٌ، ويُوجدُ على امتداده مياهٌ كثيرةٌ لكنهُ أطولُ الطُرق. والطريقُ الثانى هو الطَّريقُ الشمالى الذى يمتدُّ عَبْر نهر الفُرات ويؤدى إلى شمال شَرْق الشَّام لكنه يَبْعُد عن الجيوش المُسلمة، وهو عُرْضةُ لغارات من الحَاميات الرومانية. ثم قال: كيفَ لى بطريق أخرجُ فيه من وراء جَمُوعِ الرُّوم؟

ردَّ بعضَ القادة: لا نعرفُ إلا طَريقاً لا يَحملُ الجيوشَ، يأخُذه

الراكبُ فإيَّاكَ أن تُغَرر بالمُسلمينَ!

طرحَ خالدُ سُؤالهُ ثانياً، فأجابُه رافعُ بن عُميرة، وكانَ مُحارباً رائعاً ذائعَ الصَيت، وأوضَح انهُ طريقُ صَحراوىّ يَمُرُّ عَبْرَ أرض سماوة، ويمرُّ في صحراءَ جَرْداءَ ليس فيها ماءُ يسلكها الراكبُ في خمس لَيالِ مع خُطُورتها.

وهَزَّ القادةُ رُؤوسهم بعدم المُوافقة!

ونظرَ إليهم خالدُ وقالَ بصوتَ هادئ: لابُدَّ من اجتياز هذا الطَّريق. ثم قال: لا تختلفوا ولا تضعفوا واعلموا أن المعونة تأتى على قَدْر النّية، والأجرَ على قَدْر الحسْبة.

وأثَارتْ كلمتهُ حَماسَ القادة فقالوا في عَزْم وثقة: «أنتَ رَجلٌ قد جَمَع اللهُ لك الخَيَر»

وبدأ الجيشُ يستعدُّ للمسير إلى الشَّام في حَماس مُنْقطع النَّظير، ثمَّ انْطلقَ خالدُ يطوى الصحراءَ طَيَّاً في طريق لا يعرفهُ سوى رجلٌ واحدٌ هو «رافعُ بن عُميرة»، وبجيشٍ قُوامة تسعةُ آلافَ رجلٍ في أروعِ مغامرةٍ في التَّاريخ العَسكرى.

ووصلَ خالدُ إلى الشَّام، وتمَّ الإستيلاءُ على بصْرى، ومن بَعْدها التقتْ حُشودُ المُسلمين مع حُشود الرُّوم في أجْنَادين، ودارتْ أكبرُ معارك الشَّام، وكان نَصْرُ المُسلمينَ بقيادة خالدِ بن الوليد في معركة أجنادينَ نَصْراً تاماً.

وعندمَا وصَلتْ أنبَاءُ الهَزيمة إلى هرقَل امبراطورُ الرُّوم شَعُرَ بالكارثة وسَافر إلى أنطاكيةَ، وأمرَ قُواتاً أُخرى بالتحرك نحوَ دمشْقَ لتعزيز هذه المَدينة قبلَ حصارها.

وفى دمشق دارتْ معاركُ هائلةٌ، وانتصر المسلمونَ على الرُّوم، وبعد استقرار المُسلمينَ فى دمشقَ، أنتحَى أبو عُبيدةَ بن الجراحَ بخالد ابن الوليد وسَلَّمُه رسالةً وصلتْ إليه ليْقرأها. كانتْ من أمير المؤمنينَ عُمر بن الخطاب، بعد أن ماتَ أبو بكر الصديق خليفةُ المسلمين وفيها أن خالدَ أصبحَ مَعْفياً من الخدمة، وأصبَح أبو عُبيدة قائداً عاماً.

وسارَ خالدَ إلى خَيْمته حَزيناً، يبكى على فراق أبى بكر.. ويقول بأسى: رحمَ اللهُ أبا بكر.. لو كان حياً ما عُزلتُ من قيادتى.

وامْتثلَ خالدُ لأمر الخليفة الجديد، وعَمل جُندياً فى جيش المُسلمين تحتَ إمرة أبو عُبيدةَ بن الجرَاح، وخاضَ معاركَ حمْص وقَنْسرين، وعلى نهر اليَرموْك دارتْ معركةٌ حاسمةٌ فى تاريخ المُسلمين كان فيها خالدُ قائداً لإحدى الكتائب، وبدأتْ المعركةُ به للمبارزة، فخرجَ خالدُ بفرسه، وخَرجَ قائدُ رومانى يُدعى «جرْجةَ»، والتقى الفارسان فى الأرضْ الفاصلة بين الجيَشْين. وكان جْرَجةُ مُعْجبًا ببطولات خالَد، فلم يُشْهر سَيْفه وإنما راحَ يسألُ خالداً عن سَبب كُنْيته «سَيْفُ اللهَ» وخالدُ يجيبه: «دعا لى رسولُ الله وقال لى: أنتَ سيفٌ من سُيوف الله فهكذا سُميتُ سيفُ الله.

فسألهُ: إلامَ تَدْعُونَ؟ قال خالدُ: إلى توحيد الله وإلى الإسلام.
وصاح القائد الرُّومانيُّ: عَلِّمنى الإسلامَ يا خالد.

فأخذهُ خالدُ إلى خيمته وعلَّمهُ الإسلامَ، فأسلَم جرْجةَ وصلَّى لله ركَعْتين، ولم يصل سواهُما، فقد قاتلَ بَعْدهُما جرجة فى صُفوفَ المُسلمين حتى نَالَ الشَّهادَة فى سَبيل الله.

وانتصرَ المُسلمونَ فى معركة اليَرمْوك. وكانتْ أُمْنيةُ خالد أن ينَالَ الشَّهادة فى سبيل الله فى هذه المعَركة، وفى كُلِّ معركة خَاضَها.

وعندما اشْتَّد على خالد المرضُ عاد إلى المدينة حزينًا، وأخذَ يُرددُ فى حَسْرة طاغية وهو على فراش المُوْت:

«لقد شهدتُ قُرابةَ مائة زَحْف، وما فى جَسدى مَوْضعُ إلا وفيه ضَربةُ سَيْف، أو طعنةُ رُمْحَ أو رَمْية سَهْم، ثم ها أنذا أموتَ على فراشي حَتْفَ أنفى.. فلا نامتْ أعينُ الجُبناء!».

وراحَ يُمْلى وَصيَّةَ على من بجواره، وهى أن يُعْطَى فرسُه وسلاحُهُ إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ولم يكُنْ يَمْلكُ من الدُنيا غَيْرهُما.

وعندما ماتَ خالدُ بكاهُ أميرُ المؤمنين عُمر بن الخطاب، وبكاهُ المُسلمونَ جَميعهمُ، حتى فَرسُهُ وقَفَ أمامَ قَبْره صَامتاً حَزيناً، وعَيناهُ تَتَحَّدرُ منْهما الدُّموعُ.

تمت بحمد الله

عَمْرو بن العاص (رضى الله عنه)

كَانَ عَمرْو بن العَاص بنُ وائل تَاجراً من أشْراف قُرَيش . وكانَ دَائمَ الترْحال إلى بلاد اليَمن والحبَشة والشَّام ومصْرَ ، وَقَدْ أكْسَبَتْهُ هَذه المهنةُ دَهَاءً وسَياسةً وجُرْأةً .

ذَهبَ ذاتَ مَرْة بتجارة مَعَ نَفَر منْ قُرَيش إلى بَيْت المَقْدس .

وهُناك كَانَ يتناوبُ مَعَ أصْحَابه في الجبَال رَعْيَ الإبل . فبينما عَمْرو يَرعْى إبلهُ في يَوم شَديد الحَرّ إذْ مَرَّ عَلَيه رَجُلٌ أصَابُه عَطشٌ شَديدٌ ، فسقاهُ عَمَرْو مَنْ قربْةَ حَتى أرتَوى ثُمَّ نَامَ في ظلِّ صخرة . خَرَجَتْ حيةٌ كَبيرةٌ منْ حُفَرة بَجوَاره ، ولَمحَها عَمْرو تَقتَربُ من الرَّجُل فَنزَعَ سَهْماً وبَسرعَةَ وضَعهُ فَيَ القَوْس ، وفى لَمح البَّصرَ كَانَ السَّمُ قَدْ أصَابَ الحيَةَ فى مَقْتلٍ .

وهُنا صَحَا الرَّجلُ مفَزْوعاً يتَلفتُ حَوْلَهُ : ما الأمْرُ؟!

وعنْدمَا رأى الحَيَّةَ الضخْمَةَ جُثَّةً هامدةً . وعَمْرو يَقْربُ منهُ بخُطُوات ثابتَة وَوَاثقة أدْركَ حَقيقَةَ الأمر . وقَامَ فَرحَاً يُعانَقُ عَمْرو وَيُقَبِّلُ رأسَهُ وهو يُردِّدُ : يا للكَ منْ رَجل نَبيل لَقَدَ أصَابَنى اللهُ بك مَرْتَين . . مَرةً منْ شدَّة العَطَش ، ومَرةً منْ هذه الحَيَة . ثُمَّ سَأَلَ عَمْرو :

- كَمْ كُنتَ تَرْجُو أنْ تكْسب منْ تجارتكَ هَذه؟

قَالَ عَمْرو : أنْ أكْسبَ مَا أشْتَرى به بَعيرَيْن أو ثلاثَ وأرَجْعُ ببضَاعة من العُطور والحرَير .

قَالَ الرَّجُلُ : وكَمْ تَكونُ ديةُ أحَدكُم بيْنكُم؟

قَال عَمرْو : مائةُ من الإبل .

قَالَ الرَجُلُ: لَسْنا أصحابُ إبل، بَلْ أصحَابُ دَنَانير.

قَال عَمَرْو: إذاً يكونُ ثَمنُ الدّيَةُ أَلَفُ دينار.

قَالَ الرَّجلُ: إنّي رَجلُ غَريبُ في هَذه البلاد، وإنّما جئتُ إلى بَيت المقَدْس لأصَلّي وأتَعْبدُ وأسيَحُ فيَ هذه البلَاد شَهْراً. وكَانَ هَذا نَذْراً عَلى نَفْسي.

قَالَ عَمْرو: وَهَلْ أَدَّيْتَ مَا كَان عَليكَ منْ نَذْر؟

قَالَ الرَّجلُ: نَعَم أدَّيتُ ذَلكَ والحَمْدُ لله، وأنَا الآنَ رَاجعُ إلىَ بلادي، فَهَل لَكَ أنْ تَتْبعني إلى بلادَي، ولكَ عَهْدُ الله وميثَاقه أنَ أعْطَيكَ ثمنَ ديتَين، لأنَّ اللهَ أحيانيَ بكَ مَرتَين.

قَال عَمْرو: وَمنْ أيِّ البلاد أنَتَ؟

قَالَ الرَّجُلُ: مصَر.. منْ مَدينة تُدعْى الإسَكَنْدريَة.

قَالَ عَمَرْو: قَدْ ذَهَبْتُ بتَجارتيَ إلىَ بلاد كَثيرة ومنَها مصْرَ، لَكنَّ تلْكَ الأسْكَندريةَ لَمْ أدْخُلهاَ منْ قَبْلُ.

قَالَ الرَّجُلُ: لَوْ دَخَلْتَها لَعلَمتَ أنَّكَ لَمْ تَدْخُل قَطُّ بَلداً مثلها!

نَظرَ عَمْرو إلىَ الرَّجل بريْبَة، لكنْ لَمح فيِ عَيْنَيه دَلائلَ الإمْتنان والصِّدق، فسأله عَمْرو: أتَفي لي بمَا تَقُولُ؟

قَالَ الرَّجُلُ: نَعَمْ، وأعاهدُ اللّه أن أرُدَّكَ أيْضاً إلى أصَحَابكَ.

قَالَ عَمْرو: وكَمْ نَمْكُثْ في ذلكَ؟

قال الرَّجُلُ: شَهْراً.. تَنْطَلقُ معي ذاهباً عَشْراً، وتقيمُ عنْدي عَشْراً وتَرْجعُ في عَشْرة أيّام.

قَالَ عَمرو: أَمهِلْنى حَتَى أشَاورَ أصَحْابى.

وانْطَلَقَ عَـمْرو يُشَاورُ أصَحَابَهُ فوَافَقوا، وتَعاَهَد مَعَـهم عَلَى أنْ يُقيـمُوا فى المكَان حَـتَى يَرْجعَ إليْـهم وأنْ يُشَاطرهُم ذلكَ المالَ، وأن يَصْحَبهُ رَجَلٌ منْهُمَ ليأنَس به.

وانْطَلَق عَمْرو وصَاحبُه مع الرَّجل إلى الإسكنْدَرية، وهُناكَ رَأىَ عَمْرو مدينةً جميلةً ونظيفَةً، ووافقَ دُخولُ عَمْرو الإسكَنْدَريةَ عيداً كَبيراً يَجْتَمعُ فيه أشْرافُهُم، ولَهُم كُرةٌ منْ ذَهَب يَترامَى بهـا هَؤلاء ويَتلَقفُونَها بأكمَامهم. وكان ظَنُّهم (اعتقَادُهُم) أنَّ كُلَّ من وَقَعَتْ الكُرةُ فى كُمِّه لَم يَمُتْ حَتَّى يكُونَ مَلكاً عَلَيْهَم. ولأنَّ الرَّجُلَ كَانَ ثَرياً، فقَد أكرمَ عَمْرو وأحْسنَ ضيافَتهُ، وأهَداهُ ثَوْباً منْ الدِّيباج، واصطَحَبهُ إلى ذَلكَ المَجْلس حَيثُ يترَامى فيه الأشْرافُ بالكُرة.

وهُناكَ أخَذَهُم الرَّجلُ بمَا فَعَلهُ عَمْرو منْ مَعَروف أنْقَذَ به حَياته. وبَيْنمـا هُمْ كَذَلكَ إذ وَقَعْت الكُرةُ فى كُمِّ عَمْرو بن العَاص، فَسكَتُوا جَميعاً ونَظَروا إلى بعضهم فى دَهْشَة.

وقَالَ أحَدُهُم: مَا كَذَبتنا هَذه الكُرةُ قَطُّ إلاّ هَذه المَرَّة!!.. أتُرىَ هَذا الأعرابىَّ الضَّيفُ يملكُنا؟! هَذَا لا يكُونُ أبَداً.

وعَادَ عَمْرو إلى أصْحابه مُحمَّلاً بالهَدايَا، وعَرفَ مَدْخلَ مصْر وطُرُقَها ومُدُنَها، ودَفعَ إلىَ أصَحابه ألفَ دينار، وأبْقَى لنفسه ألْفاً. وانطلقَ الركْبُ بتجارتهم عائدين إلى مكةَ.

* * *

كَانَ الإسْلامُ ينتَشرُ فى مكةَ عَلى غَيْر ما يَهوْى أشْرَافُ قُريَش. وكَان المُشركُونَ يُعذِّبونَ المُسلمينَ حَتى يَرْجعـوا عَنْ دينهم إلى دِين

آبائهم وأجْدادهم، وعَانَى كثيرٌ منَ المُسلمين منْ الإضطهاد، وأذنَ النَّبيُّ ﷺ لبعَضهم بالهجْرة إلَى الحَبشة. حَيثُ هُناكَ مَلكٌ لا يُظلَمُ عنْدهُ أحدٌ حَتَىّ يأتِي اللهُ بالفَرج.

وأثارَ فرارُ المُسلمينَ إلى الحَبَشة غَيْظَ المُشركينَ، فتبادَلوا الرَّأيَ بَحْثاً عَنْ وَسْيلَة لردْعهم وَرَدِّهم إلى مَكَةَ. وقَالُوا: لَيْسَ لها إلاْ عَمْرو بنُ العاص صَدّيقَ النجاشي.

وخَرجَ عَمْروْ وعَبْدُ الله بنْ أبي رُبيعةَ منْ مَكةَ يَحْملان إلى مَلك الحَبشَة وإلى بَطارقته هَدايَا كَثيرةً. واستَقْبَلهُم النَّجَاشيُ استقبالاً طَيباً وقَبلَ هَدايَاهُم وجَلَسوا يَتحدَّثُونَ.

قَالَ عَمْرو بنُ العَاص: أيُّهَا الملكُ، إنَّه قَدْ أتى إلى بَلدكَ منَّا علمَانُ سُفهاءُ، فارقوا دينَ قَوْمهم ولَمْ يَدْخُلوا في دينكَ، وَجَاءوا بَديْن ابتَدعُوه لا نعرفُهُ نَحْنُ ولاَ أنْتَ، وقَدْ أرْسلناَ إليكَ أشَرَافُ قومهمَ لتسُلمهُم إلينا.

فَقَال النَّجاشيُ: لاَ واللّه لا أسَلّم قَومَاً استَجارُوا بي ونَزلُوا بلادي حَتى أسْمعَ كَلاَمَهُم. وأرْسَلَ إلى المُسلمينَ فجَاءوا وسَألَهُم عَنْ هَذا الدِّين. فَقَامَ جَعفرُ بن أبي طَالبَ وتَحَدْثَ مُوَضحاً تعَاليمَ الإسلام، وتَلى آيَات منْ سُورة مَرْيم.

فَلمَّا سَمعَ المَلكُ سورةَ مَرْيم وسَمعها الأسَاقفةُ تأثَّروا وَبكُوا.

وقَالَ النَّجَاشيُّ: إنَّ هَذا والذي جَاءَ به عيَسى لَيَخْرُجُ منْ مشكاة واحَدة، ثُمَّ التفَتَ إلى عَمْرو وصَاحبُه وَقَالَ انْطَلقا واللّه لاَ أسَلمّهمَ اليْكُماً، وَرَدّ عَليهمَا الهَدَايا. فَرَجَعَ عَمْرو وصَاحبَهُ يَجُرَان أذيالَ الخِزْيِ والحَسْرة.

أصبحت المدينة موطناً للدين الجديد، وأصبحت قريش ترجف كلما علمت بانتشار الإسلام وتمسك الناس بمحمد، وكان لابد من المواجهة فكانت معركة بدر الكبرى، وانتصر جيش المسلمين على جيش قريش، ثم انتزعت قريش النصر من المسلمين في غزوة أحد.

وأرادت قريش القيام بعملية عسكرية كبيرة تكون الضربة القاضية على الإسلام والمسلمين، فكونت من قريش والعرب أحزاباً وخرجت في جموع هائلة ولكن الله هزمهم وردهم خائبين.

ورجع عمرو بن العاص إلى مكة، حائراً مفكراً، يسأل نفسه: كيف مني جيش قوي هائل بالهزيمة أمام المسلمين؟! وأدرك أن النزاع بين قريش ومحمد لن يطول، وأن محمداً على حق.

استيقظ عمرو بن العاص ذات يوم وركب دابته وخرج من مكة ولم يبعد قليلاً عن الديار حتى سمع صوتاً ينادي:

- إلى أين يا عمرو بن العاص؟

التفت عمرو فرأى خالد بن الوليد على راحلة له بصحبة عثمان ابن طلحة فقال عمرو: إلى حيث أريد يا ابن الوليد، وإلى أين أنت؟

وتبسم خالد وقد أدرك وجهة عمرو، فقال: في طريقك أنت.. لقد فكرنا وانتهينا إلى ما انتهيت.

قال عمرو: حسناً فعلت.. لقد استقام الأمر يا صديقي ومحمد نبي ولا جدوى من المكابرة، ولا ينفع العناد.

وعندما انتهى الثلاثة إلى المدينة، دخل خالد على النبي وأسلم ثم دخل عمرو على النبي وأسلم وسأل النبي الصفح والمغفرة، فبشره

النبىُّ أنَّ اللَهَ رَحيمٌ يَقْبلُ التَّوبةَ ويعفُو عَنِ السَّيِّئاتِ .

* * *

كَانتْ قَبائلَ قُضَاعة عَلى طريق الشَّام تَجْمَعُ جُمُوعَها وتَتأهبُ للزحَف عَلى المَدينة ومُهاجمة المُسلمينَ، وَرأىَ النَّبىُّ أن يُسندَ مُهمَةَ إخمَادَ هَذه الحَركةَ إلى عَمْرو بنُ العَاص ، فانَطَلق عَمْرو بسَرِيَّةَ منْ ثَلاَثة آلاَف مُقاَتل حَتى وَصلَ إلى آبار يُقالُ لها ذَاتُ السَّلاسَل ، رأىَ بَعْد اسْتطلاَع المَوقَف أن عَددَ الأعَداء كَبيرٌ ، فأرسلَ عَمْرو إلَى النَّبىِّ يَطْلبُ منْهُ المَدَدَ .

فَأمَّدهُ النَّبىُّ بمائَتين منْ خيرَة المُهاجرينَ والأنَصار كَانَ فيهم أبو بكر الصِّديق وعُمرُ بنُ الخَطَاب وأبو عُبَيدةُ بنْ الجَراح . وَصلَّى عَمْروٌ بالنَّاس أياماً ، ثُمَّ تقَدَّمَ بهم وَهَجم عَلى الأعداء هَجْمةً شَديدةً فَتمزقَ شَمْلُ الأعَدا ، وقُتلَ بَعضُهم ولاذَ الباقون بالفرَار .

وأرَادَ المُسلمونَ مطُاردتهم فى الشِّعاب لَكن عَمْرو صَاحَ فيهم : أثْبتُوا ولا تَتْبَعوا الفَارِّين ، كَفىَ هَذه الرؤوسُ التَى تَملأ بَطنَ الوَادَى .

فتَذمَّر بَعضُ الجُند وقَالوا : ولماذا لا نَتْبَعُهمُ حَتى نقضَى عَليهم أوْ نَأسرَهُم؟

قَال عَمْرو بحَزم : هكذا أمرتُ والوَيلُ لمنْ يخالفُ أمرْى!

وأطَاعَ المُسلمونَ عَمْرو عَلى مَضَض ، وأقْبل اللَّيلُ ، والمُسلمونَ فى خيامهم يرجُفُونَ منْ البرد ، فأسْرعُوا يُوقِّدون نَاراً .

وهُنا انبعَثَ صَوتُ القائد عَمرْو بنُ العاص يَنْهَاهُم عَنْ ذَلكَ ويُحَذِّرْهُم منْ مُخالفة أوامرهُ . فَصَبرَ المُسلمونَ وباتُوا ليلةً قاسيةً

وعَزمُوا عَلى أنْ يَرفعوا أمْرَهم إلى النَّبىَ ﷺ، ويَشكُون إليه قَسْوةَ عَمْرو.

وعنْدمَا كَلَّمَه النَّبىُ فى ذلكَ قَالَ عَمْرو: يَا رَسُولَ الله كَرِهْتُ أنْ يُوقدوا نَاراً فَيَرى عَدُوهَمُ قلَّتَهُمَ، وخشَيت أنْ يتَعقَّبوا الأعَداءَ فيكونُ ذَلكَ كَميناً للمُسلمين. فأُعَجَبَ النَّبىُ بذكاء عَمْرو وأثْنى عَليه خَيْراً.

أرْسَلَ النَّبىُ عَمْرو مَع نَفر من الْمُسلمينَ إلى قَبيلة هُذَيْل لَهَدم صَنَم كَبير كَانَ يُعْبدُ من دُون الله، وكانوا يُسَمُّونَه سُوَاعُ. ونَجَحَ عَمْرو فى آدَاءِ مُهمَته. وبعَدها أرْسَله النبىُّ إلى مُمْلكة عُمان فى مُهَمة سياسيةَ، إذْ كَان أهلُها يَعبدُون النَّار، وكان يَحكُمُها أخَوان يُدعيَان جَيْفَر وعبَّادً.

وَصلَ عَمْرو إلى عُمَان يَحملُ إلى مَلكَيْهَا رسالةً منْ النَّبى ﷺ تَدْعوهُما إلى الإسْلام، ونَجَحَتْ دبْلوماسيةُ عَمْرو فى إقْناع هَذين الأخَوَين فى الإسلاَم، ودَخلَ النَّاسُ فىَ هَذه المَمْلَكَة فى دين الله وتركوا المَجوُسية. وَسُرَّ النَّبىُ بذلكَ وكافأ عمَرْوَ بولاية الزَّكاة فى تلكَ البلاد. وعَاشَ عَمَرْو فى عُمان يَجمَعُ الزَّكاةَ من الأغنياءَ ويُوزَعُها عَلى الفُقرَاء ويُعَلّمَ النَّاسَ قَواعدَ الدِّين، حتَى جَاءَهُ ذاتَ يَوم كتابُ مَخْتومُ منْ المدَينة. وعنْدما فَضَّهُ وقرأهُ عَلمَ أنَّهُ منْ «أبى بكر» خلَيفَةُ المسلمين. وَأنهُ يُخبرُه بوَفَاة الرَّسول ﷺ، وأنْ يَبْقى كُلُ شَىء إلى مَا هُو عَليه.

كَانَتْ الدُّموعُ تَنهَمرُ منْ عَينى عَمْرو وَهُو يَقرأ الرسَالةَ، ورَاحَ يَتلقَى العزاءَ فى النَّبىِّ، والنَّاسُ فى حُزن يُواسى بَعْضُهم بَعْضاً.

أرْسَلَ أبو بكر الصَّديق إلى عَمْرو بنُ العَاص لحرَب الْمُرتدَين من قَبيلة قَضَاعة، ولَبَّى عَمرْو النِّداءَ، وعَادَ إلى خَليفةَ المُسْلمَين حَاملاً لوَاءَ النَّصْر. وأرَادَ أبو بكر تأمينَ حُدود الجَزيرة العربيةَ ومُجَابَهة إمبرَاطورية

فارس والرُّوم، وفَتْح هذه البلاد لنَشْر الإسلام فيها.

انطلقَ جيشُ المُسلمينَ بقيادة عَمْرو بنُ العاص منْ المدَينة لفتَح الشَّام، فاتَّجَهَ إلى إيلات (إيلياءَ) قاصداً فلسطين، وَفي طَريقه كَانَ يَستَنفرُ القبَائلَ للجهاد في سَبيل الله حتَى كَانَ معَه تسْعةُ آلاف مُقاتلٍ.

وفي هذه الأثْناء كَانَ خَالدُ بنُ الوليد يتَقدَّمُ بجَيش لفَتح العرَاق، وأبو عُبيدةَ بنُ الجرَّاح يَتَّجهُ إلى حمص، ويزيدُ بنُ أبي سُفيان يتَّجهُ إلَى دمَشقَ وشُرَحْبيلُ بنُ حَسنة يتّجهُ إلَى وادي الأُرْدُن.

وكَانَتْ أوامرَ الخَليفةُ أبو بكر الصِّديقَ أنْ يُعاون بَعْضُهم بَعْضاً وأنْ يَكُونوا جَميعاً تحَتَ إمْرة أبي عُبيدة بنُ الجَراح في الشَّام.

واجَهَ عَمْرو بنُ العَاص بجيَشه مائةَ ألف مُقاتل منْ الرُّوم، وفكرَّ عَمْرو كَيفَ يُزَعْزعُ هَذه الحُشود الهَائلة فَي مَنْطقَّةَ تُسمَّى «غَمْر العَربات» فعَقدَ رايَةً وأعطْاها لعبدَ الله بنُ عَمرَ وضَمَّ إليه ألفَ فارس دَاهَم بهم عَشرةَ آلاف من الرَّوم، وطَعنَ عَمْرو كَبيرهُم فَخرَّ ميتاً، وَهُناً دَخلَ الرُّعْبُ في قُلوبَ الرّوُّم لمَا رَأوْهُ في المُسلمين منْ شَجاعة وإقْدام عَلى المَوت، فَفروا تَاركَين الغَنَائمَ.

وفي الصَّباح أشْرَقَتْ عَلَى المُسلمين عَشَرةُ صُلْبان، تحَتَ كُلِّ صَليب عشَرة آلاف مُقاتل. فَأقْبلَ عَمْرو يُرتِّبُ الجُندْ، فَجَعلَ في مَيْمنة الجيَشً الضَّحَاك، وَفي المَيْسرة سَعيدُ بنُ خَالد، وعَلى السَّاقة (مؤخرَة الجيش) أبا الدَّرَداءَ. وثَبتَ هُو في قَلْب الجَيش وراَحَ يقوِّي الرُّوح المَعْنويةَ في الجُنود فأمَرهُم بتلاوةَ القُرآنَ، وكَان يَسيرُ بجواده أمَامَ الجَيْش يُذكِّرهُمْ بالله ويَحُثهُّم علَى القتاَل في سَبيلِ اللهَ، وأنْ يكَونَ هَدفُهم ثوَابُ الله والجَنَّة.

كَانَ جَيْشُ الرُّوم يقُودُه بَطْرِيقٌ يُدعَى «رُوبيس»، ودَارتْ المعَركَةُ والْتحَمَ الجَيْشَان، وتَفَرَّقتْ جُموعُ الرُّوم، وتَعقَّبَ المُسلمون الفَارِّين من الروم، وكَانَتْ خَسارةُ الرُّومِ خَمْسةَ عَشَر ألفاً وخَسَارةُ المُسلمين مَائةٌ وثلاثين.

وفى المَساء كَانَ عَمْرو بنُ العاص فى خَيمَته يكتُبُ إلى أبى عُبَيدةَ ابنُ الجراح مَا حَدَثَ علَى أرْض فلسَطين، ويَسألهُ إنْ كَان فَى حَاجة إليه.

ومات أبُو بكر الصِّديق، وتَوَلَّى عُمُر بنُ الخطاب الخلافةَ منْ بعَده، وأقَرَّ الأمُراءَ عَلىَ ما كَانوا عَليه، وضَمَّ خالدَ بنُ الوليدَ إلى أبَى عبَيدة ابنُ الجرَاح، وأمرَ عَمْراً بمَعُونة جَيْش المسلمين.

وسَارَتْ جُيوشُ المُسلمينَ تَخْتَرِقُ الأدغالَ والجَبالَ حتَّى وَصَلتْ إلى دمَشق. وشَدَّد المُسلمونَ الحصارَ عَلى أهْل دمَشق سَبْعين يوماً ومَنعَوا عَنْهم المَددَ حتَى نَفذَتْ المؤن، عنْد ذَلكَ دَارَتْ بعضُ المُناوشَاتُ التَى أفْضَتْ بعدَها إلى الصُّلْح.

وانطلقَ أبُو عُبيدةُ بنُ الجراح بجَيشه يفَتحُ المُدنَ الواقعةَ شَماليَّ الشَّام كحمص وحماة وحَلب واللاذقَية وغَيْرها. بينما حَرفَ عَمْرو همَتَهُ إلى القَضاء عَلى قُوةَ الرُّوم بفلَسطيَن وفَتْح مَا لَم يُفْتحَ من بلادها، فَسارَ بجيَشه ناحيةَ فلسْطيَن، وكَانَ عليهَا وال داهية يُدعَى «أرَطْبون»، عَلَم بانتصَاراتَ المُسلمين فى شَمال الشَّام وعَزمَهم عَلى فتَح فلسطين، فَوضعَ جُنْداً كثيراً ببيْتَ المَقْدس، وغَزَّةَ والرَّملَةَ وخَيَّم بجيَّشَه بأجْنادين وأرادَ عَمْرو أن يُرَتبَ خُطَطَه عَلى مَعْلومَات سَليمة عَنَ جَيْشِ الأعَداء، فَذهَبَ بنفَسه إلى مَقرِّ الأرْطبون واستَأذَنَ عَليهً

مُدَّعياً أنهُ رَسولُ عَمْرو بنُ العاص قَائدُ جيش العَرب؛ فَأذنَ لهُ الأَرْطَبونُ ودَخلَ عليه عَمْرو فحَيَّاهُ، ودَارَ بينهُما حَوارُ. سألهُ القَائدُ: هَلْ عَمرو دَاهيةٌ كَمَا تَقُولُون؟

فَقَال عَمْرو: عَمْرو يَا سَيِّدى سَهْمٌ من سهام الله، يَعرِفُ أيْنَ يَضَعُ قَدمَهُ وأين يُوجهُها وما دَخل فى شَىءٍ إلا خَرَجَ مِنْه.

الأرطَبون: وكَمْ عَددُ جَيشه؟

عَمْروٌ: لا أدرى يا سَيَدى، فأنَا رَسُولُ عَمْرو، جئْتُ أبلِّغكَ رسالتَهُ وأدْعوكَ بلسانه إلى الإسَلامِ، فَإن أبَيْتَ فالتسليمُ وَدفْعُ الجزيةَ، وإلاَّ فَالحَرب.

الأرطَبون: وهَلْ بقليلكُمْ أيُّها العَربُ ستَغلبونَ الأَرْطَبونَ؟

عَمْرو: وَهَل الأرطَبُونُ أعزُّ عَلى سُيوفِ المُسلمين مِنْ هِرقَل إمبراطور الرُّوم؟!

فاغتَاظَ الأَرْطَبُون وأمَر لَهُ بجائزةٍ كَبيرةٍ، وأرسَل إلى بَوابِ الحِصْنِ أنْ يَقْتُله إذا مَرَّ به خَارجاً.

مَشى عمرْو يحملُ الجَائزةَ، ويُلاحظُ منْ حَوْله استعدادَ العَدو.

واقتربَ بَوابُ الحصْن منْ عَمْرو وكَانَ قَدْ علمَ ما أَضْمَرهُ الأرطبونَ وهَمسَ إليه فى حَذرَ: قَدْ أحْسنتَ الدُّخُولَ فأحْسَن الخرُوجَ!!.

وفَطنَ عَمْرو إلى الأمرِ، ورَجَعَ مُسْرِعَاً إلى الأَرْطَبونَ فصَاحَ القَائدُ:

- لمَ عُدْتَ أيُّهَا العَرَبىُّ؟

قَالَ عَمْرو: نَظَرتُ فِيما أعْطيتَنى فَوجَدْتُه لا يَسَعُ بَنى عمِّى فرأيتُ

أنْ آتِيكَ بَعشَرة منهم ليكونَ معرُوفُكَ أوْسَعُ وفَضْلُكَ أعَمُّ.

فطمعَ القَائدُ فى قَتْله وقَتل عَشَرة منْ أصْحابه، فَقالَ: حَسَناً اذْهَب وائتنى بهم. وَبَعثَ إلىَ الحاجَب: لاَ تَقْتُل الرَّجُل، وخَرجَ عَمرْو من بَابَ الحَصْن سَالماً، ونجَا منْ القَتْل بدهَائه وحُسْن حيلَته، وعَرف فى هَذه المُغَامَرة استعدادَ جَيش الأرْطَبوَن.

وزَحَفَ عَمْرو بجَيشه إلى أجْنادين ودَارَتْ هُناكَ مَعركَةٌ هائلةٌ انتَصرَ فيها المُسلمونَ وفَرَّ جَيشُ الرُّوم فى ثمَانين ألف إلى بَيْت المَقْدس.

وتَقَدَّمَ عَمْرو بجَيشه وحَاصَرَ بَيْتَ المقدس أربعةَ أشْهُر، ولَمَّا عَلمَ المُحَاصَرونَ عَدَم جَدْوى دفاعهم، طَلَبُوا الصُّلحَ عَلى أنْ يُوَقِّعَهُ الخليفَةُ بنَفسه. فكَتَبَ عَمَرو إلىَ عُمر بن الخطاب يستشيرهُ، فركبَ أميرُ المؤمنينَ دابَته بصُحْبة خَادمَه إلىَ بَيْت المَقْدس وعَقَد معَ البَطارقة صُلْحَاً. ولَمَّا حَضَرَتْ الصَّلاَةُ خرَجَ أميرُ المؤمنينَ منْ الكَنيسة وصَلَّى الظُّهر. وبَعْدهَا دَخَلَ المُسلمون القُدسَ مُكبرِّيَن. وَفى هذه الأثناء فرَّ الأرْطَبون ـ أميرُ فلسطين ـ إلى مصْر.

أقامَ عَمْرو بنُ العَاص بفلَسطين بَعْد أنْ أصْبحَ وَالياً عَلَيْها، ثُمَّ استأذَنَ أميرَ المؤمنين فى فَتْحَ مَصْرَ ومُطارَدة الأرْطَبون - الذى أقْسمَ أنْ يَعودَ بجَيش كَبير يُبدِّد المُسلمينَ.

أعَدَّ عَمْرٌو بنُ العاص جَيْشاً هَائلاً وأنطَلقَ عَبْر رمال سَيْناءَ إلى مصرَ فاتحاً البلادَ التى فى طريقَه حتى وَصَلَ إلى حصْن بَابليون. وكانَ الرُّوم قَدْ دَخلُوا الحصْنَ ومَعهُم أكَابر المصْريين والمَقوقس عَظيمُهُم. وحَاصَرَ المُسلمون الحَصنَ سبعةُ أشْهرُ. ورأى عَمْرٌو ضَرورةَ اقْتَحام الحصنْ.

ووُضعتْ خُطةٌ للاقتحام، وهى أنْ يَصْعدَ الزُبيرُ بنُ العوامِ فى سُلَّم ويبَلُغَ رأسَ الحصن ويُكبر، فَيكُبِّر المُسلمونَ تكبيرةً واحدةً تَهُزُّ الأرَجاءَ وتُزلزلُ أفَئدةَ الحَامية. ونجَحتْ الخُطةُ، وظَنتْ الحَاميةُ أن تكَبير المُسلمينَ صادُرُ من جَوْف الحصْن وأنّ المُسلمينَ اقْتحمُوهُ ففروُّا إلى مَخابئهم تَاركَين الأبَوابَ. وهُنا انسابَ المُسلمون داخلَ الحصْن يَحصُدَونَ رؤوسَ الرُّوم بسيُوفهم، واستَسلَمَ تيُودورُ قَائدُ الرَوُّم، فأوقَفَ عَمْرو القَتْل وأمَرَهم بإخلاء الحصن فلى ثلاثة أيامَ. وخلَّص عمرو المصْريين مِنْ قَهْر الرُّومان الذينَ اسْتَعبدُوهم مئاتَ السِّنين.

وفَرضَ عَلى المصْريَين جَزْيةً وتَركَ لهُم حُريّةَ الدُّخول فَى الإسلام أو البَقاء عَلَى دينهم. ثُمَّ فَتَح عَمْرو الإسكنْدَريةَ بعْد حَصار دَامَ ثلاثة أشْهُر وَولىَّ علَيها عَبدَ الله بنُ حُذافةَ، وانْصَرف إلىَ الفُسْطاطَ ليْعمُرهاَ ويُشيِّد فيها المَساجد. ودَخلَ كَثيرٌ مِنْ المصْريِّين فى الإسْلامِ حُباً فى عَمْرو وإيماناً بدينه.

وعَنى عَمْرو بالترُّع والجُسُور عَلى النَّيل وخَفَّفَ الضَّرائبَ التَى كَان فَرضَها الرُّومان، وتَنفَّس المصْريَّونَ هَواءَ الحُرية عنْدما رأوا فَى المُسلمين أخلاقاً كَريمةً وعفَّةً وَعْدلاً، ورأوا الحاكمَ مثالاً طَيِّباً للحكْمة والذكَاء والعَدْل.

وفى خلافة مُعاويةُ بن أبى سُفْيان، اشَتدَّ عَلى عَمْرو بنُ العاص المرضَ، ومَاتَ باكياً مُسْتغفراً رَاجياً رحمةَ ربه. ودُفنَ فِى سَفْح جَبَلِ المُقَطَم بمدَينة الفُسْطاط.

تمَتَ بحَمْد اللَّه

سعد بن أبي وقاص

كانَ الشَّابُ فى دُكانه نَشيطاً . . يَبْرى السِّهامَ، ويَصْنعُ الدُّروعَ، ويُصلحُ الأقواسَ، ويُرتبُ بعَناية أدوات الحَرْب. وكانتْ تُسيطرُ عليه من حين لآخرَ حَيْرةٌ وطَيْرةٌ، رُبمَا كانَ سَببها تلْكَ الرُّؤيةُ التى رآها فى نَومه ليلةَ أمس.

فى هذه الساعة مرَّ عليه أبو بكر الصَّديق، فحيَّاهُ وراحَ يسأله عن أحواله فى التِّجارة.

قالَ الشَّابُ ويُدْعى سَعْد بن أبى وقاص: أحْوالُ التِّجارة بخيرٍ غَيرَ أنى فى حَيْرة وقلق!

قالَ أبو بكر: ولِمَ؟!

قال سعدُ: رُؤيا رأيتُها بالأمْس، رأيتُ أنّنى أسيرُ مُتَعثِّراً فى طريق وَعْر مُعْتم، ورُحتُ أتلفتُ حَوْلى باحثاً عن طريق سَوىّ مُضاء، وكُنتُ أستغيثُ وأصرخُ كأنّى أختَنقُ، وإذا بالقَمر يُشرقُ فجأةً. فصحَوتُ من نَوْمى.

تبسَّمَ أبو بكرِ الصِّديق ضَاحكاً وقالَ: أبْشر يا صَديقى إنها رُؤْيا خَيْر.

سأل سعدُ: أصْدقنى القولَ ما تأويلُها؟.

كانَ أبو بكر الصِّديق قد آمَنَ بمحمد رَسُولاً من عند الله، وكانتْ الدعوة الإسلاَمية فى مهدها، والنَّبىَ يدعو إليها سِرّاً أصْدقاءه وعشيرتُه.

قال أبو بكر لصاحبه: إن تَأويلَها يا صَاحبى أنَّكَ تَسيرُ فى متَاهات

الجَاهلية، وهى مُظْلمةٌ ومُلْتويةٌ، فبينما أنْتَ كذلكَ إذْ طَلَع القَمرُ وأنارَ الكَونَ بنَور النُّبوة.

يا صَديقى لَعلَّكَ سَمعتَ عن مُحمّد بن عبد الله.

قالَ سعدُ: تَعْنى الصَّادقَ الأمينَ؟!

أبو بكر: نَعْم.. إنهُ نبىٌ مُرسَلٌ من الله إلى النَّاس ليُؤمنوا بالله وَحْده لا شريكَ له، وإلى تَرْك عبادة الأصْنام، لَقد بُعثَ فينا ليُخْرجنا يا صَاحبى من الظُّلمات إلى النُّور، ولَقَد آمنتُ به. إنَّهَ دينٌ جَديدٌ يَدْعوُ إلى الرَّحمة والعَدْل وإلى مكَارم الأخْلاق.

قال سَعدُ: والله لَقد أسْعدتَنى بهذه البُشْرى.

وأغلَقَ سَعدُ دُكَانهُ، ومَضَى أبو بكر بصَاحبه إلى رَسُول الله ﷺ ليُعْلن إسلاَمُه فى دار الأرْقم بن أبى الأرْقم، وَيَسْتمع إلى كَلام الله «القُرآن».

آمنَ سعدُ بن أبى وَقَّاص آنئذ وكانَ عُمْره سَبعةَ عشرَ عاماً، ووصلَ الخَبرُ إلى أُمه فَثَارتْ وغَضبَتْ وأقسَمت ألا تَذُوقَ الطَّعامَ أو الشَّرابَ حتى يَرْجعَ عَن دينه إلى دِين آبائه وأجْداده. وكان سَعْدُ باراً بوالديه رَحيماً بأمه، وكَانَ يُحبُّهَا حُبَّاً كَثيراً. فَحزنَ لحزنُها وراحَ يُلاطفُها ويُرغَبُّها فى دين مُحمد، وهى لا تسْمعُ له وتُشيحُ بوجهها عنه.

وتُمرُّ أيامٌ وسَعْد يَجْمعُ فى نفسِّه مَشاعَر شَتَّى، بين فرحته بالدِّين الجديد وجُلُوسه بين يَدى النبَّى وأصحابه، وبَيْن هَمِّه وحُزْنه علىَ ثَورة أُمه وغَضبها عليه وصَدِّها عنه.

دَخَل سَعدُ على أُمه ذاتَ صباح يسأل عن حَالها، فأشاحَتْ عنهُ

ولم تُكَلِّمه، فقالَ لها مُتودِّداً: يا أمي إن دينَ مُحمد يدعو إلى عبادة الله وَحْدهُ، ويدعو إلى المُساواة والعَدْل وإلى مكَارِمِ الأخلاق. يا أمي خيرٌ لك أن تُؤْمني بالدِّينَ الجديد.

فتَثُور الأُم برغم ضَعْفها وتصيحُ: أقْسمتُ ألا أذُوقَ طَعاماً ولا شَرَاباً حتى تَرْجعَ إلى دين آبائكَ وأجْدادكَ.

فيردُ سعدُ مُشْفقاً عليها: يا أُمي كُفِّي عمَّا أنتِ فيه حتى لا تهلكين أو تَمُوتينَ.

فتقولُ أُمهُ: سَأظَلّ هكذا حتى أمُوتَ حُزْناً ويُعيركَ النَّاسُ بى ويقولون هَذا سَعْد قاتلُ أمهُ!

ولم يُفْلح سَعْد فى إرضاءِ أُمّه بسببِ كِبْريائِها وعِنادِها فصاحَ فيها غاضباً:

– تَعْلمينَ يا أُمى لو كَانتْ لَك مائةُ نفس، فَخرجتْ نَفْساً نَفْساً ما تركْتُ دينى، فكلى إن شئْت أو لاَ تأكلى. وتَركَها وانْصرفَ.

وذَهَبَ سَعْدُ مُسْرعاً إلى رسول الله ﷺ وقَصَّ عليه ما حدثَ له مع أُمه، فحزنَ النَّبيُ ولَمْ يَجدْ ما يقُولُه لسعد. حتى نَزل الوَحى على النِّبى بقرآن: «وإن جَاهداكَ على أن تُشْركَ بى ما ليسَ لكَ به علْمٌ فلا تُطعهما وصَاحبهما فى الدُّنيا مَعْروفاً» فقال النبيُ له: يا سعدُ كُنْ باراً بأمّكَ واصْبر علَيها.

كانَ سعدُ بن أبى وَقَّاص تاجراً للسِّهام وللسِّلاح، وكان شاباً فَتيّاً قوياً، وكان بطبيعة عمله يتدربُ على الرَّمى، وكان قَريباً من النبى ﷺ، وعندما اشْتدَّ إيذاءُ المشركينَ للمسلمينَ هاجرَ بعضُهم إلى

الحبشة، لكنَّ سَعْداً ظَلَّ بجوار النَّبى ولم يُهاجر.

وهَاجَر سعدُ إلى المدينة قَبْل هجرة النبَّى لها، وكانَ هو أولُ من رمَى بسهم فى سَبيل الله عندما أرسْلهُ النَّبىُ مع نفر من أصَحْابه واشْترك سَعَدُ فى غزوة بَدْر، وقاتلَ المُشركين بسيفه وسهامه بشجاعةَ لا مَثيلَ لها حتى أثْخنتهُ الجراحُ، ولما أنتهتْ المعركةُ خلعَ ثيابَهُ التىَّ ملأتها الدِّماءُ وطَواها ليوم لقاء ربِّه. ثُمَّ راحَ يُضَمدُ جراحهُ ويَحمدُ الله على نعْمة الإيمان.

وفى غزوة أُحد نَزلَ مُعْظمُ الرُّماةُ من فَوق الجبل عندما رَأوا فرارَ المُشركينَ وراحَوا يَجْمعون الغَنائمَ، ولَّما رأىَ المُشركون ذلكَ التفُّوا بقيادة خالد بن الوليد ـ وكان حينذاكَ مُشْركاً ـ وراحُوا يُصوبونَ سهامَهمُ إلىَ المُسلمين، وأنقَلبَ بسرعة النَّصرُ إلى هَزيمة، وتشتتَ المُسلمون وفرَّ بعضهُم، وأحاطَ بعضهُم النَّبىَ يُدافعون عنه. وكان سَعدُ بجوار النبى يَرْمى بسهامه المُشركينَ بمهارة، والنبىُ ﷺ يَرى سهامَ سَعد تُصيبُ المشركينَ فيقولُ له: إرْمِ سَعد فأنتَ مُوفَقٌ، إرمِ فداكَ أبى وأمىَ.

وانتهتْ المعركةُ لصالح المشركينَ، وكانَ سعدُ بن أبى وقاص فيها صَامداً مع النبى وبعض الصَّحابة.

وظَلَّ سعُد بن أبى وقَاص على شَجاعته ومَحبَّته لرسول الله، ورأى النَّبىُ منه إخلاصاً ووفاءً فدعا لهُ: «اللهمَّ سدِّدَ رَميتهُ وأجَبْ دَعْوته» وكان سعدُ يعملُ بدأب حتى بَاركَ اللهُ له فى رزْقه وأصْبحَ مُوسراً وكان يجودُ بماله.

***

عَاشَ سعدُ بن أبي وقاص مُخْلصاً لله ولرسوله ومُدافعاً عن الإسلام، وشَهدَ الغزوات كلها مع رسُول الله. وَوقفَ مع الخليفة أبو بكر الصِّدِّيق يُحارِبُ المُرتدين ويخوضَ المَعارِكَ لتثبيت دَولة الإسلام.

وفي تلكَ الأثناء كانتْ الفُتوحاتُ الإسلامية تمتدُ في العراق والشَّام لُمجابهة الفُرسَ والرُوم ونَشْر الإسلام في البلاد، وفي جَزيرة العَرب. وعندما كانَ عُمر بن الخطَّاب أميراً للمؤُمنين، كانتْ الدولةُ الإسلاَمية تزدادُ قُوةَ وتزدادُ اتساعاً. وَوَلِىَ امبراطوريةُ الفُرس قائدٌ شجاعٌ يُدعى «يَزْدَجِرد»، دَفعتُه الحَمّية والغَيْره على بلاده إلى صَدِّ هجمات المُسلمينَ، وألهبَ شاعرَ قُواده حَماساً للثَّأرِ مَن العَرب وطردهم مَن بلاده وَغْزو الحجاز أيضاً.

وبلغَ أميرُ المؤمنينَ عُمر بن الخطاب ذلكَ، ورأى خُطورةَ المُوقف وشاوَر أصْحابهُ فرأوا ضَرورةَ تدعيم جَيْش المُسلمين هُناكَ ومواصلة الفَتْح. وكَان لابُد من جَمْع المحاربين من كل نَاحية لتكوين جيش قويٍّ.

وبَعْدَ أيام انْطلَق جَيشُ المُسلمينَ من المدينة بقيادة سَعَد بن أبي وقاص وكانوا ثلاثين ألف مُقاتل مُدربينَ تَدْريَباً عالياً. وراحَ أميرُ المؤمنينَ عُمر بن الخطاب يُوَدِّعُ الجيشَ ويُوصي قائدهُ:

- «يا سَعدُ، لا يَغُرنَّكَ من الله أن قيلَ خالُ رسول الله وصَاحبهُ فإن اللهَ ليس بينهُ وبين أحد نَسبُ إلا بطاعته. عليكَ بالصَّبر واليقظة واكتبْ إليَّ بجميع أحوالكُم، وتوكَّلْ على الله، وماَ النَّصرُ إلا من عندَ الله»

وَصلَ سعدُ بالجنود إلى العراق، وتقدَّمَ ناحيةَ فارس، وكانَ يَزدْجرد امبراطُورُ الفُرْسَ قد جَمعَ جَيْشاً هائلاً أكثر من مائة وعشرين

ألف مقاتل ومزود بالخيول والفيلة المدربين على القتال، وجَعلَ لقيادته رُسْتم بن هُرْمز أشْهر وأخطرُ قُواده. وكَتب سَعدُ إلى عُمر بن الخطابَ ليُطلعهُ على أحوال الفُرس ويستشيرهُ فى الأمر، وردَّ عليه عُمر بالتوجه إلى القادسية فإنها بابُ فارَس.

وطلبَ «رستَّم» المفاوضةَ مع قائد جيش المُسلمينَ، فأرسلَ إليه سعدُ «ربْعى بن عامر» ليعرضَ عليه الإسَلامَ.

دخلَ ربْعى بثيابه البَسيطة ونَعلْه الرَّخيص على قائد جَيْش الفُرس، وهو يحملُ بين جوَانحه قُوةَ الإيمَان وعَّزةَ الإسلام. وتعجَّبَ رُسْتَم وصاحَ فى الجُندى: مَا الذَى جاءَ بكُمَ إلى بَلادنا؟

قال ربْعىُ وهو يَشدُّ على حَربته: إن الله اختارنا ليُخرج بنا من شَاء من عبادةَ العباد إلى عبادة الله، وَمن ضيق الدُّنيا إلى سعتها، ومن جوْر المُحكامَ إلى عَدْل الإسلَام، وَقد أرسلَ رسولَنا ﷺ بالحق إلى الناسَ كَافةً. وَلكم أن تَختْاروا واَحدةً من ثلاث: إمَّا الإسلامُ، وَيكونُ لكمَ مالنَا وعليكمُ ما عَلينا، وإما الجزْيةُ، وإلا فَالحربُ!

قال رُسْتم: هَلْ لكم أن تُؤخروا هذا الأمرَ حتى نَنظرُ فيه.

قال ربعىُ: نُمهلكَ ثلاثةَ أيام، لتختارَ أىُّ الثلاث.

وشاورَ رُستم أصحابهُ فى مُصالحة العَرب فلم يَسْتجيبوا. وكان رُستم يتردَّدُ بين الإقدام على الحرب، والتَّفاوَض مع المُسلمين. لأنه رأى فى كلام المُتفاوضينَ عزيمةً لا تَلينُ وقوةً لا تُردُّ تُؤكدها معاركُهم فى الشامِ مع الرُّوم.

وكان سعدُ بن أبى وقاص يُرسلُ بعضَ جنوده إلى مُعسكر الفُرس

خُفْيةً ليقفوا على حالة الجَيْش ويأتوهُ بخبر القوم.

وَقفَ سعدُ يومَ معركة القادسية خطيباً فى جيش المُسلمين يَحثُّهم على الجهاد فى سبيل الله ويملأُ قُلوبهَم عَزْماً، فصاحَ:

«بسم الله الرحمن الرحيم»، ﴿ولَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[الأنبياء: ١٠٥]، ثم صلَّى بالجيش صلاةَ الظُهر وردَّدَ: اللهُ أكبر أربعاً، وردَد الجيشُ وراءهُ. ثم هَتفَ شَاهراً سَيْفه: هيَّا تقدمُوا على بركة الله. فتقدَّمَ جيشُ المسلمينَ يُثيرُ الغُبَارَ ويحملُ الدَّمارَ، ويتساقطُ جُنود الفُرس تحت ضَربات السُّيوف وأسنَّة الرِّماح، ويشتدُ القتالُ وسعدُ يُوجه الجنودَ وهم يتَعقبونَ الفيلَ الأبيضَ، ويُقْتلُ رُسْتم قائدَ الفُرس، ويَفرُّ الجنودُ الفرس تاركينَ أرضَ المعركة ويَتعَقبهم بعضُ الفرسان المُسلمين.

وينتصرُ المُسلمونَ فى معركة القَادسية ويُصلون صلاةَ الفَتْح ثمان ركعات. ويُقيمُ سعدُ بالقادسية شَهرَيْن يُريح فيها جَيْشه ويكتبُ إلىَ أمير المؤمنينَ يخبرهُ بالفتح. وكانَ عُمر بن الخطاب فى المدينة حَائراً قلقاً يَخرجَ كلَّ حين إلى طريق العراق يَرمْى ببصره إلى الأُفق يتحَّرقُ شَوْقاً لرؤية البَريد، أو لعلهُ يَرىَ راكباً يُخبره بأحوالَ المُسلمينَ فَى القادسية.

وبينما أميرُ المؤمنينَ كذلكَ، جاءهُ البَشيرُ بالفتح والنَّصر، فحمدَ اللهَ تعالى وقرأ على المُسلمين فى المدينة رسالةَ سعد.

وكَتبَ اميرُ المؤمنينَ إلى سعد أن يسيّر من «القَادسيةَ إلى «المدائن» وأن يتركَ النِّساءَ والأطفالَ فى العَتيق ويجعلَ معهم جُنْداً لحمايتهم.

وتقدمَ سعدُ بالجيشِ حتى تمَّ فتحُ «بابلِ»، وأصبحتْ معركةُ

«المدائن» قريبةً جداً، فقد حَشَد لها الفُرس كلَّ طاقتهم. وتحصَّن الفُرسَ فى قرية «بَهْرسيز» قُرب المدائن على نهر دجلةَ، وحاصَرها سعدُ مدةً حتى تَركوها خشيةَ الجوُعِ. ودَخلها سعدٌ بجيشه فى جَوْفِ الليَّلِ حتى وقفوا على شاطئِ النَّهرِ.

ويُرسلُ سعدُ بصرهُ إلى الجهة الأُخرى من النَّهر فيرى المَدائنَ ويرى فى ضوء القمر إيوانَ كسْرى بقُبته البَيْضاء وجُدْرانَه العالية وأشجاره البَاسقة. وصاحَ جُندَىٌّ عندما لمحَ المدائنَ: اللهُ أكبر.. هذا إيوانُ كسْرى علَى مَرمْى البَّصر، هذا ما وَعدَ اللهُ ورسوله.

وهُنا ردَّد المسلمونَ بفرحة: الله أكبر.. نَعم هذا ما وعَد به اللهُ ورسوله. وباتَ ستُّون ألفَ جُندى مسلم يُرددونَ فى جَوْف الليل: اللهُ أكبر الله أكبر.. لا إله إلا الله.. الله أكبر الله أكبر ولله الحَمد.

وكان يَزْدَجرد ومن معهُ فى المدائن يسمعونَ التكبيرَ الذى يُردده الكونُ مع جَيشِ المُسلمين فيزيدهُم رُعْباً وهَلَعاً.

نزل سعدُ بجيشه فى بَهْرسير ثم أرادَ عُبورَ النَّهر إلى المدائن، وكان الفُرس قدهَربوا من المَدينة وجَمعوا السُّفن إلى الشاطَئ الآخر وَضمُّوها إلى البَرَّ الشَّرقى لدجلةَ عَلى بُعد كيلو مترات شمالىَّ وجَنوبىَّ المدائن حتى لا يستخدمها أو يَسْتولى عليها المُسلمُون. وكان النَّهرُ مُتسعاً عَريضاً، وكان وقتها فيضانٌ خطيرٌ. فكيفَ العُبورُ؟!

أقامَ سعدُ أياماً فى «بَهْرسير» يفكرُ فى وسيلة لعبور النَّهر ويستشيرُ قُوَّاده. وبينما هو كذلك جاءهُ رجلٌ من المَجوَس الذى رأوا حُسن معاملة المُسلمين لهم وقال له:

- مـاذا تَنْتظـر؟ . . لا يأتى عليكَ ثلاثةُ أيامٍ حـتى يَذْهب يزدجـرد امبراطورُ الفُرسْ بكلِ شئٍ فى المدائنِ، إنه شرعَ فى نقلِ كُنوزه وأموالَهُ إلى عُمْق فارس.

وباتَ سعـدٌ مشغولَ الفكْر بشأن العُبور وراحَ يسألُ اللهَ الهدايةَ والعونَ. وأخذتهُ سِنَةٌ من النَومَ فرأى رؤيا ان خيول المُسلمين تقتحمُ الماءَ وتَعْبرُ النَّهر وهوَ فى فَيضان عظيم، فعزمَ سَعد على عُبور النَّهر.

وفى الَصباحِ جَمعَ سَعد النَّاسَ وخَطبَ فيهم وأطْلعهم على الأمْر، وَحَثَّهم على الثَّبَاتِ والصَّبرِ، وأوْصاهم بإخلاصِ النِّية لله لا طَمَعاً فى الدُنيا.

كان سعدُ بن أبى وقاص دائمَ الحرص والحذَر، وعرف الجُنود عنه ذلك، إنهُ لا يُقْدمُ على أمر حَتى يكونَ قدَ دَرَسهُ وَاطمأن إليه. فقالوا جَميعاً: عَزم اللهُ لنا ولكَ عَلى الرُّشد فافعلْ.

فَشكَّل سعدُ كتيبةً من سُتمائة فارس على شَكْل حَرْبة لعبُور النَّهر، بقيادة عَاصم بن عمرو سُميت بكتيبةً الأهوال، ورآهمَّ الفَرسُ علَى الشاطئِ الآخَر عائمينَ على خيُولهم فأعَدُّوا لهمَ مثْلها واقتحموا النَّهرَ بخيولهَم لُمواجَهة المُسلمينَ وسط النَّهر دفاعاً عَن مَدائنهم، وقَامتْ معركةٌ نهريةٌ، وصاحَ عاصمُ:

أشْرعُوا الرَّماحَ وتَوخُّوا العُيونَ. وراحَ الجُنودُ يطعنونَ الفُرْسَ حتى استداروا وتراجَعوا إلى شاطئهم، والمُسلمونَ خَلفهم. واستمرَّ القتالُ على الشاطئ حتى صَاحَ فيهمَ رجَلٌ فارسىَّ:

- عَلامَ تقتلونَ أنفسكم فوالله ما فى المدائنِ أحدٌ. ففروا وتركوا

الشاطئ وهُنا أذنَ سعدُ إلى بقية الجَيْش فى اقتحام النَّهر وجَعل لكل فارس قريناً حتَى لا يضلُ أحدُ أَو يَغرقَ، وكان سَلمانُ الفارسى قريناً لسعدً. وصاح يُذكرهم: «قُولوا نستعينُ بالله، ونتوكلُ عليه، هو حَسبْناً ونعْم الوكَيل، لا حَولَ ولا قُوةَ إلا بالله العظيم».

وعَبر المُسلمون نهرَ دجلة الذى فَاضتَ ماؤهُ وكَثُر فيه الطَّمى والزبَد. وكان الجُنود يُغطونَ سطحَ الماء ولا يكْترثونَ، ويتحدثُون كأنهم يَعبرونَ وادياً سَهْلاً. وقَبل أن يَصلوا إلى الشَّاطئ انزلقَ رَجلٌ عن فَرسه ووقعَ فى الماء، ولمحهُ رفيقهُ «القَعْقاعُ بن عمرو» فأخذهُ بيده وجرَّه حتى عَبر النَّهر مع الجيش.

وعندما وصلوا إلى الشَّاطئِ صاحَ سعدُ فى الجنود: هل سَقَط منكم رجلُ فى النَّهر؟ قالوا: لا..

فسأل: هل وَقَع منكم شَئُ فى النَّهر؟ قالوا: لا أيها القائُد.

قال سلمانُ الذى كان رفيقاً لسعد: الحمد لله أيها القائدُ، لم يفقد الجُنودُ شيَئاً ولم يَغْرق منهم أحدٌ.

وكان عامرُ بن مالك قد وَقعَ قدحُه فى الماء أثناءَ العُبور، وذهبَ الموجُ بالقدح، ولم يَشأ عَامرُ أن يُخبر القَائدَ. لكنه حَزن جَداً وقال لرفيقه: والله إنى على يقينٍ من عودته إلىَّ، ما كان الله ليَسْلُبنى قَدحى من بينَ العَسْكر!

وبعد قليل لمحَ رجلُ من كتيبته الأهْوال الرياحَ والأمواجَ وهى تقذفُ القدحَ إلى الشَّاطئ فتناوله برمَحه، فلما رآهُ «عامر» حمد اللهَ بفرحةٍ طاغية وقال لرفيقه: ألم أقُل لكَ!

***

تقدَّم سعدٌ بجيشه فى طُرقات خالية، وبين ديار خاوية تركها أصحابُها خوفاً وهلَعاً حتى وصلَ إلى إيوان كسْرَى، ذلكَ القصرْ المهيبُ، وكان به تماثيلُ نادرةٌ، ولوحاتٌ فاتنةٌ، وذهبٌ كثيرٌ. دخلَ سعدُ الإيوانَ وهو يُرددُ فى دهشة وعبرة: سُبحان الله.. كَمْ تركوا من جَنات وعُيون وزُروع ومقام كريمٍ ونَعْمَة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثْناها قَوْماً آخرينَ.

واعتلى المؤذن البناءَ وراحَ يُردد الآذانَ: الله أكبر.. الله أكبر، حيَّ على الصَّلاة حى على الفلاحِ. واتخذه المُسلمونَ مُصلىً. ثم كَتب سعدُ إلى «عمر بن الخطاب» يُخبره بفتحِ المدائنِ ويُرسل إليه الغنائم.

***

جعلَ أميرُ المؤمنينَ سَعْداً والياً على الكُوفة، وجَعلها مركزاً للفتوحات ناحيةَ المَشْرق. وأقامَ سعدُ بالكُوفة عدَة سنوات بنى فيها مَسْجداً وكَان يَلي شُئونَ النَّاس، وشُئونَ الحربَ ويُصلي بالمسلمين.

وبعد مدة ذهبَ نفرٌ من أهل الكُوفه إلى أميـر المؤمنين بالمدينة يشكونَ سَعْداً، فقالوا: - يا أميرً المؤمنينَ إنه لا يقْسم بالسَّوية، ولاَ يَعْدلُ فى الرَّعية، ولا يَغْزو فى السَّرية، ولا يُحسنُ الصَّلاة.

وأرسلَ أمير المؤمنين «محمد بن مسلمة» إلى الكُوفة للتحقيق فى الأمْر، وكان يسألُ النَّاسَ سراً عن سعد بن أبى وقاصَ، فيقولوَن: والله لا نعلمُ عنه إلا خَيْراً إلا رجلُ يُدعَى «أسامةُ بن قَتَادة» أتهَّم سعداً.

وعندما عَلِمَ سعدُ بالأمر حزنَ حُزناً شديداً وبكى وهو يقولُ:

اللهمَّ إن كان هذا الرجلُ قالها كاذباً ورياءً وسُمْعة فاعْمِ بصرهُ، وأكثِرْ عيالهُ، وعَرِّضه لمُضلات الفتن.

وخَرجَ محمد بن مُسلمَة من الكُوفة بسعد بن أبى وقاص ومعهما أولئك النَّفر الذين يتهمونَ سَعْداً. وعَندما دَخلوا على أميرِ المؤمنين (عُمر) بالمدينَة:

قال عُمر: وَيْحَكَ يا سعدُ.. كيف تُصلى؟

قالَ سعدُ: أُطيلُ الركعتين الأولين، وأُخَفف الأُخريين.

قال عمر: هكذا الظَّنُ بكَ.

وعزلهُ عمرُ عن ولاية الكُوفه، وبقى سعدُ بن أبى وقاص مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وزيراً ومُسْتشاراً له. وسكنَ فى وادى العَقيق قُرب المدينة. وعندما ماتَ عمرَ بن الخطاب كان سعدُ قريباً منه وصلَّى مع إخوانه عَليه. وفى خلافة عُثمان بن عفَان، ولىَ سعدُ الكوفةَ مدةَ ثم تركهاَ واْعتَزل فى بيته.

ومرتْ السَّنواتُ، وعَمى أسامةُ بن قتادة ـ الرجلُ الذى دعا عليه سعد ـ وأصبح لديه عَشْر بنَات، وكان الرجلُ برغم كبرَه هَاتكاً عربيداً، يقفُ على الطرقُات يغازلُ النساء. ويتعجبُ الناسُ: وَيْحَك يَا رجلُ.. ألا تَستْحى.. عجوز وتغازلُ الجَوارى؟!

فيقولُ الرَّجلُ الذى تدلى حاجباه فوقَ عَينيْه: مفْتونٌ أصابتهُ دعوةُ سعد بن أبى وقاص الرجل المبارك.

ويَشْتدُ المرضُ بسعد بعد أن بلغَ الثمانينَ من عُمره، ويراهُ إبنه فيبكى. فيقولُ سعدُ: مَا يُبْكيك يا بُنى؟.. والله إن اللهَ لا يُعذبنى

وإننى إن شاء اللهُ من أهل الجنة . يا بَنىَّ ائْتونى بتلكَ الجُبة الصُوف التى قاتلتُ بها المشركيَن يومَ بدرٍ ، فما طَويتها كلَّ هذه السنَوات إلاَ لهذا اليوم .

فينهضُ ولده «مُصعب» ويُحضر الجُبةَ التى جَفَّتْ فيها دماءُ أبيه يوم المعركة . فيقولُ سعدُ : كفنونى فيها .

وعندما حضرتْ سعدَ بن أبى وقاص الوفاةُ ، جاءَ رجالٌ من أهل المدينة وجَهزوهُ وكَفَّنوهُ فى جَبته التى شَهَد فيها غَزوة بَدر . ثم حملوهُ على أكتافهم ، وصَلُّوا عليه فى مَسجد الرَسول بالمدينة ، ودُفن بالبقيعِ مع إخوانه صَحابة رسول الله ﷺ •

تمت بحمد الله

حمزةُ بن عبد المطلب

كَانَ حَمزةُ بن عبد المُطَّلب عَمَّ النَّبى وصَديقَهُ أيامَ الطُّفولة والصِّبا، وكان بطَبعه شُجاعاً جَريئاً، يُحبُ المُبارزة والفُروسية، ويَهْوَى الصَيْد فى الصَّحراء.

وكَانتْ دَعوةُ النَّبى مُحمد إلى الإسلام فى بدايتها تَلْقى صُدُوداً واستنكاراً من أشْراف قُريش ورِجالها، وكانَ النَّبىُ يدعو إلى الإسلام سِرّاً ويجتمعُ بأصحابه فى دار الأرقم بن أبى الأرْقم. وسَمعَ حَمزةُ عن دَعْوة مُحمد إلى الإسلام، وكان يُفكر فى هذا الأمر الجديد.

خَرجَ حَمزةُ ذاتَ يَوم إلى الصَّحراء للصَّيد، وراحَ يُطاردُ غَزالة ويُصوِّبُ سهامهُ إليها حتى ظَفَر بها، وعَادَ آخر النَّهار إلى مكةَ يَحملُ على جَواده صَيْدهُ الثمين.

وعندما اقْتربَ حَمزةُ من الدار نَادتهُ خَادمةُ لابْن جُدْعان وأخبرتهُ أن أبا جَهْل شَتَم مُحمداً ابن أخيه وأسمعهُ ما يكرهُ، فَثَارَ حَمزةُ وألْقَى صَيْدهُ غَاضباً، وتَوجَّهَ ناحيةَ الكَعبةَ حَيثُ يَجلسُ أبُو جَهْل هُناكَ كعادته.

وعندما لَمح حَمزةُ أبا جَهل جَالساً بين جَماعة حَوْلَ الكَعبة وضَعَ سَهْماً فى قَوْسه ورَماهُ به. فَشَّجهُ حتى سَالَتْ منه الدِّماء وهو يقولُ ثَائراً: أتشتمُ مُحمداً وأنا على دينه، أقولُ ما يَقُولُ، وأشْهدُ أنهُ رسولُ الله، ألا فَرُدَّ علىَّ ذلكَ إن استطعتَ!

دُهشَ الجَالسونَ من ثَوْرة حَمزةَ والدماء تسيلُ من أبى جَهْل، ونَزلَ عليهمَ خَبرُ إسلامُه كالصَّاعقة، ولم يَستطعْ أحدُ منهم أن يَرُدَّ عليه. فركبَ فَرسَهُ وانطلق كالرِّيح.

وعادَ حمزةُ إلى داره يُفكرُ فى أمْر الدَّعوة الجديدة، ويَعتريه شَكٌّ، وبعد أيام من الحَيْرة والقَلق أدركَ أن الإسلامَ حقٌ، فأسلمَ، وأَسلمتْ زوجتُه (خَوْلةُ بنتُ قَيْس)، وانضمَّ إلى المُسلمين فى دار الأرقم، يُصْغى إلى حَديث النَّبى ويُصلى ويتعلمُ.

ذاتَ يَوْم كان النبىُّ جَالساً بين أصحابه فى دار الأرقم يُعلمهم كتابَ الله والحكمة، وقَرعَ البابَ، فنظرَ أحَدُ الصَّحابة من فَتحْة البَاب فرأى عُمرَ بن الخطَّاب مُتوشِّحاً سَيفهُ، فعادَ خائفاً مَذْعُوراً يُخبرَ النبىَ بالأمر. وهُنا قامَ حمزةُ إليه وهو يقول: لا تَخَفْ.. سأرى ما وجَهتُه، إن كانَ يُريدُ خيراً فخيراً. وإن كان يُريدُ شَرّاً قتلناهُ بسيفه.

وإذا بعمر بن الخطاب يدخلُ على النَّبى ساكناً خَاشعاً ليُعلنَ بين يدى النَّبى إسلامهُ. وتدُوِّى فى الدار صَيحةُ: الله أكبرَ ويفرحُ النبىُ لإسلام عُمر ويفرحُ المسلمونَ.

***

أعزَّ اللهُ الإسلامَ بحمزة وعُمر، ودَخلَ فى الإسلام كثيرٌ من النَّاس، وهَاجَر المُسلمون إلى المدينة، وفى العام الثانى من الهجرة يُرسلُ النبىُّ سَريةً إلى أرْض جُهينَة على شَاطئ البحْر ويَقُودها حَمزةُ

ابن عبد المُطلب جهاداً فى سبيل الله.

ووقعتْ غزوةُ بَدْر بين المُسلمين والمُشركين، ودار قتالٌ عنيفٌ بين المُقاتلينَ، وكان حمزةُ يَصُولُ فى المعركة بسيفين؛ يُزعزعُ الصفُوفَ ويَحْصدُ الرؤوسَ، وهُزمتْ قُريشُ فى هذه المعركةَ هَزيمةً مُنكْرةً، قُتل فيها عَشراتٌ من سَادة قُريش، ووقعَ فى الأسْرِ كَثيرٌ.

عَادتْ قُريش إلى مكةَ تُلملم نفسها وتَحْشدُ جَيْشها لتثأر لشرفها وقَتْلاها، وكَانت هنْدُ بنتُ عُتْبةَ زَوجةُ أبى سُفيانَ قد فُجعتْ يومَ بدر بأربعة رجال، بابنها وأبيهَا، وبعمها وأخيها، فكانتْ لا تنامُ ولا تهدأُ من الغَيْظ والحَسْرة، وأقْسمتْ أن تثأرَ من مُحْمد، ومن عَمّه حَمزةُ، كان «وَحْشىُ ابن حَرْبَ» عَبْداً حَبشياً يُجيدُ رمى الحرابَ وإصابةَ الأهْداف، فجهزَّهُ سَيِّدهُ «جُبَيرُ بن مُطعم» للحرب وحَفَّزهُ على القتَال قائلاً:

- إن أنْتَ قتلتَ حَمزةَ بن عبد المطلب فأنتَ حُرٌ!

وكان عَمْ جُبير قُتل يومُ بدر بسيف حَمزة بن عبد المُطلب. وأحَالوهُ إلى هند زَوجة أبى سُفيان لتُحفزه أكثرَ على المُضى نَحو الغَاية. فقالتْ لوحشىٍّ:

إن أنْتَ قَتَلتَ حَمزةَ، وأتَيتنى بكبده فلكَ منى جَائزةً.

فَسألها وَحشىٌّ: وما الجائزةُ؟

قالت هندُ: لكَ قرْطى وقلادتى وهُما من اللؤْلوء الثَّمين والذَّهب الخالص.

ولَمعتْ عَينا وَحشىٌّ وهَاجتْ خواطرهُ. إن حُريَّتهُ وغناهُ ثمنها

رأسُ حَمزةُ بن عبد المطلب . . يا له من ثمنٍ!

والتقى الجَيْشان يَوم أُحُد . ودَارتْ معركةٌ طاحنةٌ، كان حَمزَة فيها يقاتلُ قتالاً عَنيفاً بسيفه، وكان وحْشىٌّ بنُ حَرْبٍ يترصدُ حمزةَ ليتمكنَ من ضَرْبه على غَفلْة .

وتَقدَّمَ سَبَّاعُ بن عَبْد العُزَّى ليُصارع حمزةَ عند صَخْرة، فضربهُ حَمزةُ بسيفه فقطَع رأسهَ، وكان وحشىٌّ مُختبْئاً وراءَ جذْع شجرة . وعندما أقتربَ حمزةُ من الشَّجرة رَفع وحشىٌّ حربتَهُ وسَدَدَها فى بطنه بقوة فَخرَّ حمزةُ شهيداً غارقاً فى دَمائه .

وطارَ وحشىٌّ بن حَربٍ إلى هنْد زَوجةُ أبى سُفيان فرحانَ يَحملُ حَربتهُ التى تَقْطُر دماً، ويُخبرُها بتمَثيل حَمزة ويسألها الجَائزةَ .

فتصيحُ صَيْحةً مَذْعورةً: هَذا لا يُطفئ لَهيبَ قَلْبى، اذهب وائتنى بكبده .

وَعادَ وحشىٌّ مُسْرعاً ليُخرج كبد حمزةَ بن عبد المطلب، وتَلَقَّتْ هنْدُ الكبدَ وهى تَمْضُغهُ بغيظٍ ولا تكادُ تُسيغُه، ثُمَّ لَفظَتْ القطعةَ من فَمها وراحتْ تَصرخُ :

- شُفَيْتُ نَفسى وقَضَيتُ نَذْرى أزَاحَ وحَشىٌّ غَليلَ صَدْرى .

وانتهتْ الحربُ وعاد المُشركونَ إلى مكةَ . ونزل النبىُ إلى أرض القتال بعد انتهاء المعركة، وراحَ يتفقَّدُ القَتلى والجَرحى ويتفحصَ وُجوهَ أصحابه الشَّهداء . وأمامَ جُثة عمه حَمزةُ وَقفَ النَّبى وَاجماً

حَزيناً، وأسْبلَ جَفْنيه من هَوْلِ المشهد، ثم فتح عينيه وهو يُردِّدُ فى حُزْنٍ كَظيم:

«لن أُصَابَ بمثلكَ أبداً يا أسَد الله ويا سَيّد الشُهداء، رحمةُ الله عليكَ يا عمِّ. لقد كُنتَ وَصولاً للرَّحم فَعُولاً للخَيرات».

ثم التفتَ النَّبىُ إلى أصْحابه الذَّينَ أصَابَهمُ الحزُن وقال:

- والله لئن أظْفرنى اللهُ على قُريشٍ لأُمثلنَّ بثلاثين من رجالهم!

ولم يَبرح النبىُّ مكانَهُ حتى نَزلَ الوحىُ بآيات كريمةَ ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ**﴾[النحل : ١٢٦].

قالَ النبىُ راضياً: بَل نصبرُ يارب.

وجىءَ بجُثمان حَمزة إلى مكان الصَّلاة من أرَض المعركة، وصَلَّى عليه النَّبىُ وأصحَابُه، ثمَّ جىءَ بشَهيد آخَرَ وصلَّى النَّبىُ وأصحابه عَليهما.. ثم رُفعَ الشَّهيدُ وتُركَ جثمانَ حَمزةَ، وجىءَ بشهيد ثالث ووُضع بجوار حَمزةَ.. وصَلَّى عليهما النبى.. ثُمَّ جىءَ بشهيد تلوَ شهيد حتى صلَّى النبىُّ على عَمه سَبعينَ صَلاة.

تمت بحمد الله تعالى

عبدُ الله بن مَسْعُود

كَانَ النَّبىُ صلَّى الله عليه وسلم وصَاحبهُ أبو بكر الصِّديق يَسيران فى الصَّحراء سَاعَة القَيْظ عندما سَمعا من بَعيد راعياً يَشْدُو بأبيات من الشِّعر . الْتَفَتَ النَّبى نَاحيَة الصَّوت ثَم قال لأبى بكر :

- لقدَ بلغَ بنا الجُوعُ والعَطشُ مَبْلغاً . . هَيَّا بنا نَذْهبُ إلى هَذا الرَّاعى لَعلَّنا نجدُ عنده شَيْئاً من الطَّعامِ أو الماء .

كان الفَتى الرَّاعى يَجْلسُ فى ظلِّ شَجرة والشِّياهُ حَولهُ ساكنةً ونائمةً . اقْتربَ النبى وصَاحبهُ من الفَتى وسألاه :

- هَلْ عندكَ من لَبنٍ تَسْقينا؟

قالَ الفَتى الرَّاعى : إننى مُؤتمنٌ على هذه الشِّياه، ولسَتُ بصاحبها ولستُ سَاقيكُما .

قال النبىُ : لا بأسَ . . هل عِندكَ من شَاةٍ لم يَنْزُ عليها الفَحْلُ؟

قال الفتى : نَعم .

ذهبَ الفتى إلى القطيع ثمُ عادَ بشاة فأمسكَها النَّبى ومَسحَ الضَّرعَ بيده وهو يُردِّد دَعاءً ، فامتلأ الضَّرعُ باللبَّن .

وقامَ أبو بكر يَبْحثُ عن إناء ، فَلم يَجد إلا صَخْرةً مُتَقعرةً ، فحلبَ النبيُ الشَّاةَ فى هذه الصَّخرة وشَربَ هو وصَاحبه . ثم قال النبى للضَّرعِ : إقْلعُنْ !

فعادَ الضَّرعُ إلى ما مكانَ عليه .

وانصرف النَّبى وصَاحبهُ بعد أن شكَرا الرَّاعى . وتركا الفتَى (عبدْ الله بن مسعود) فى حَيْرة وذُهُول، يُحدِّثُ نَفسهُ: ما هذا الذى رأيتُ . . إن الشَّاةَ لا عَهْدَ لهَا باللبنَ وبرغم ذلكَ يمتلئُ ضَرعها وتُدرُ لَبناً غَزيراً سائغاً . . هذا شَئُ لا يُصدقهَ عَقْلُ .

وأفاقَ الفتى من شُروده، وتلفَّتَ حَولهُ بحثاً عن هذين الرَّجلين فلم يَجْد لهما أثَراً . وعَلم الفَتَى عبُد الله بن مسعود بعد ذلكَ أن الرَّجلين هُما : مُحمدٌ النبى وصَاحبهُ أبو بكر الصديق .

كانَ عبدُالله بن مَسْعود رَاعياً للغَنم عند عُقْبَةُ بن مَعيطً وكان يَقْضى نهارهُ فى الصَّحراء، وعندما جَاءَ المَساءُ ذهبَ إلى النبى وقال لهُ: عَلِّمنى من هذا القَولَ .

تَبسَّم النبى وقالَ: إنكَ غُلامٌ معُلَّمُ .

وأسَلم الفَتى الرَّاعى «عبد الله بن مسعود»، وكان النبىُ وقتها يدعو إلى الإسلام سراً، وأصبحَ الفتىَ بعَدها مُلازماً للنبى، يَحفظُ القُرآنَ، ويتلو آياته بصَوته النَّدى .

كان الصَّحابهُ يجلسونَ ذاتَ يوم يتلون آيات القرآن فقال أحدهُم : والله ما سَمعَ أشَرافُ قُريش هذا القرآن يُجْهَرُ به، فَمن منا يَذهبُ ليسُمَعهم القرآنُ فى مَجلسهم عند الكَعبة .

قال عبدُ الله بن مَسْعود: أنا!

ضحكَ بعضهم وقالَ: إنَّا نَخْشاهُم عليكَ.. إنا نُريد رجلاً له عَشيرةٌ يمنعونه من إيذاء القومِ.

فقال عبد الله: دَعُونى أذهبُ، فإن الله سيَمنعنى منهم.

كان عبد الله بن مسعود ناحلاً ضَامراً لكنَّه كان يملكُ إرادةً قَويةً وشَجاعةً نَادرةً، فَغَدا إلى الكعَبة فى الضُحى وقُريشٌ فى أنَديتها وجَلَس عند المَقامِ على مَقْربةٍ من زُعماء قريشٍ وراحَ يتلو القُرآنَ بصوت عال:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٤] .

تلفَّتَ القومْ وهمُ يتساءلونَ: من هذا الذى يَصيحُ عند المَقامِ؟

قال أحدهُم: إنهُ ابن أُمِ عَبد.. يتلو ما جاء به مُحمدٌ.

دُهش القومُ من جُرأة هذا الرَّاعى الصغير الذى يتحدَّاهُم وقاموا إليه يضربونَ وجههُ. وهَو مُستمرٌ فى قراءته. والدَّمُ يسيلُ من فمه ووجهه، حتى أُغمى عليه. ولما أفاقَ عاد إلىَ أصحابه. فقالوا: هذاَ الذى خَشيناهُ عليكَ!

فقال: ما كان أعداءُ الله أهَونُ علىَّ منهم ولئن شئتمُ لآتينهم غداً بمثلها.

فقالوا: حَسْبُك.. قد أسَمعتُهم ما يكرهُون.

هاجَر النبى إلى المدينة ، وهَاجَر المُسلمون أيضاً ، ووقعتْ غزوةُ بَدر ، ودار القتالُ بين المسلمينَ والمُشركينَ ، وفى إحدى الصُفُوف كان يقفُ فَتَيانِ حَديثا السِّن بيد كُلٍ منهما سَيفٌ ويتلفتان بحثاً عن شَئٍ .

اقتربَ أحدهُما من عبد الرحمن بن عَوْفٍ وسأله هَامساً :

- يا عمُّ . . أين أبو جَهْلٍ؟

قالَ عبد الرحمن : يا ابن أخى ماذا تُريدُ منهُ؟

قال الفتى : عَلمتُ أنه يَسُبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله لو رأيتهُ لن أتَرَكَهُ حتى يَموتُ الأعْجلُ منا .

واقتربَ الفتى الثانى من عبد الرحمن بن عَوْفٍ وسألهُ هامساً : يا عمُّ أين أبو جَهْلٍ؟ فقال لهُ مثل ما قالَ لصاحبه .

وبعد فترة من القتال رأى عبد الرحمن بن عوف أبا جهل يَصُولُ فى الميدان . فقالَ للفتيين : انْظُرا . . هذا هو أبو جَهْلٍ الذّى تسألانى عنه .

وانطلقَ الفتيان ناحيةَ أبى جَهْل وضَرباهُ بسيفهما حتى وقعَ على الأرض غارقاً فى دَمائه . ثم أسرعَ الفَتيان إلى النَّبى يقولان : قتلنا أبا جهلٍ . فسُرَّ النَّبىُ وَسألَهما : أيكما قَتَلُه؟

قال كُلُّ واحدٍ منها : أنا قتلتهُ .

قال النبى : هل مَسحتُما سَيْفكما؟

نظر النبىُ إلى السَّيفين فَوجَد عليهما دماءاً . فقال : كلاكما قَتْله .

ولما انتهت المعركةُ قال النبى لأصحابه : من يَنْظر ما صنعَ أبو جهل؟ فَعثَر عليه عبد اللهُ بن مسعود وبه آخرُ رمَق من الحياة . فوضعَ عبدُ الله رجله على عُنقِه وجَذَبهُ من لحيته وهو يقولُ :

- أتذكرُ كم آذيتنى وضربتنى فى مكةَ؟ . . هَلْ أخزاكَ اللهُ يا عَدوُ الله؟!

قال أبو جَهل : وبمَ أخزانى؟ أخْبرنى لمن النَّصر اليوم؟

قال عبدُ الله : لله ورسوله .

ضَغطَ عبدُ الله على رَقبةَ أبى جَهْلٍ بقدمه .

فقال أبو جهل وهوَ يَئنُّ من الألم : لقد ارتقيتَ مُرتْقًى صَعباً يا رُوَيعْى الغَنَم!!

وقَطعَ ابن مَسْعود رأسَ أبو جهل وربَطهُ فى حَبل وأخذَ يَجُرهُ حتى وصَل إلى رسول الله . وقال : هذا رأسُ عدو الله أبى جهل .

فقال النَّبىُ : اللهُ أكبرُ . . الحمدُ لله الذى صدَقَ وعَدهُ ونَصرَ عَبدهُ .

***

كان النَّبىُ يجلسُ بين أصحابه ذات يوم فى ظلِّ نخلة ، وصَعَد عبد الله بن مسعود الشَجرة ليأتى منها بعودٍ من الأراك ، ورأى الصحابةُ ساقيه النحيلتين فضحكوا .

فقال النبىُ مُعاتباً : تضحكونَ من ساقى ابن مَسْودً . . والله لهما أثْقلُ فى الميزان عند الله من جبل أُحُد!

كان النبى يحُبُ سَماع القرآن من عبد الله مسعود، وكان عبدُ الله فى صُحبة النبى يوماً، فقال له النبَى: اقرأ علىَّ يا عبدَ الله.

قال عبدُ الله: أقرأ عليكَ. وعَليكَ أُنزلُ يا رسولَ الله؟

قال النبَّى: إنى أُحبُ ان أسمعه من غَيرى.

فأخَذَ ابنْ مَسْعُود يقرأُ من سُورة النِّساء، حتى وَصلَ إلى قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾

[النساء: ٤١]

فقال النبى: حَسْبُكَ. حَسْبُكَ يا ابن مَسْعود.

التفتَ عبد الله إلى النَّبى فوجدَ عينيه قد فَاضَتا بالدَّموع.

وينتقلُ النَّبىُ إلى الرفيق الأعلى تاركاً حُزْناً كبيراً فى قَلْب عبد الله وفى قُلوب أصحابه، ويتوَلى الخلافةَ أبو بكر الصِّديق، ثُمَّ عُمر بن الخطاب، وَيفتح المُسلمون بلادَ الشَّام، ويوليه عُمر على بيت المال بالكُوفة فكان لأهلها مُعلِّماً وناصحاً، وكانَ خاشعاً لله، زَاهداً فىَ المَال فأحَبَّهُ النَّاسُ.

وكان دائماً يُردِّدُ، خَيرُ الغنى غنى النَّفس، وخَيرُ الزَّاد التقوى.

ومَرضَ ابن مسعود فى العام الثانى والثلاثون من الهجرة، وكان يتُوق شَوْقاً للقاء الله ولقَاء رسوله.

وصَعدتْ روُحُه إلى خَالقها، ودُفن بالبقيع.

تمت بحمد الله

عمار بن ياسر

أتى «ياسرُ بن عَامر» من اليَمن مُهاجراً، واستقرَّ به المُقَامُ فى مكة يَعملُ ويكْدحُ طَلباً للرزق وسَعْياً على المعَاش، وتَزوجَ من جارية هَادئة الطِّباع راجحةُ العَقْل وتُدْعَى (سُمَّية بنت خياط) وهى إحدى جَوارىَ أبى حُذَيفة بنَ المُغيرة.

ورزقَ الله الزَّوجين ولَداً جَميلاً سَمَّاهُ ياسر (عَمَّار)، وشَبَّ الغُلامُ على الصِّدق والأمانة ومكَارمَ الأخلاق. وكان الإسلامُ وَقْتئذ يَنْتشرُ فى مكةَ سراً.

سَمعَ ياسرُ بن عَامر عن الدَّعوة الجديدة، والْتقى برسول الله صلَّى الله عليه وسلم، واستَمعَ منه إلى آيات منَ القُرآن فَهتفَ قَلْبُه لَجلال الله، ودَعاهُ النبى إلى الإسلام فأسلَم.

وعادَ ياسرُ من سَاعته إلى زَوجه وولده فرحانَ، يَبثُّ إليهما بُشْرى إسلامه. ويَقُصُّ عليهما ما سَمعَهُ من النَّبى، ويَتْلو عليهما ما حَفظهُ من آيات القُرآن. فانْشَرحَ صدرُ الزَّوجة للإسلام وآمنَ الفَتى ياسرُ بالدعوة الجديدة.

أسلمتْ الأُسرة الصغيرةُ ياسرُ وزوجتُه سُمَّية وابنها عَمارُ وكانتْ الأُسرةَ المؤمنةُ تُقيم الصلوات فى دَارهم، ويُرتلون القرآنَ. وعَلمَ بنو مَخْزوم بإسلام آل ياسر فاسْتشَاط غَيظَهم، وراحَ أبو جَهْل غاضباً يُهدِّدُ ويَتوعَّد:

عَجباً لأمر هؤلاء الفُقراء الضُّعفاء، يتركونَ دينَ الآباء والأجداد، ويَتبعون دين مُحمد بن عبد الله، هذا واللاَّتَ والعُزَّى لا يَكونُ.. إما أن يَعُودوا إلى ملَّتنا أو نَجعلْهم للنَّاس مَثلاً.

أخْرج بنو مَخْزوم آلَ ياسرَ إلى بَطْحاء مكةَ ساعةَ القَيْظ وراحوا

يَصبُّون عليهم ألوان العَذاب. السِّياطُ اللاسعةُ تُمزِّق أجْسامهم، والحجارةُ القاسيةُ تدقُّ عظامَهم، والرِّمالُ الملتهبةُ تَشوى جُلودهم، والأسرةُ المؤْمنة صابرةٌ علىَ العَذاب والهوان فى ثبات وصُمود.

ويَمرُّ بهمْ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيصرخُون: يا رسولَ الله.. ألا ترى ما نحنُ فيه؟

فيحزن النبىُ ويقول: صبراً آلَ ياسرَ، فإن موعدكُم الجنةُ.

وتَنْزل هذه الكلماتُ بَرْداً وسلاماً على قُلوب الأسرة المُؤمنة، فيَزيدها العَذابُ إصْراراً وثَبَاتاً، فُيضاعف المُشَركونَ من وَطْأة التَعذيب، ويأمرُهم المُشركونَ بأن يَسبُّوا مُحمداً ويُؤمنوا باللاتَ والعُزَّى. فيأبوا مُردَدينَ: لا إله إلا اللهُ، مُحمدُ رسول الله. فَيْجَن جُنون المُشركينَ وتَنهالُ سياطهم على أجْسامهمُ العَارِيةُ.

ويأمرُ أبو جَهْل «سُميَةَ» أن تَسبَّ مُحمداً، فتُغلظ له القَولَ وتُسمعهُ ما يكرهُ، فَيطعنهاً بالحرَبة فيسيلُ دَمُها الطاهرُ على الرِّمال السَّاخنة، وتَخرُ على الأرض مُسلْمَةً رُوحها لله لتكونَ أولَ شهيدةٍ فى الإسلاَمِ من أجلِ كلمة الحقِّ.

وذاتَ يوم كان عَّمارُ بن ياسر يُعذَبُ عَذاباً شَديداً، والمُشركونَ يُغطون رأسهُ بالماء حتى بَلَغ به الإعيَاءُ مَداهُ وكادَ يختنقُ وهم يقولونَ لهُ: اذكرْ آلهتنا بخَير.

فأخذَ عَمَّارُ يُردد قَولهم وهو فَاقدُ الوعَى من أثر العَذاب.

وعندما أفاقَ من الإغماء تذكَّر ما كانَ يُردده فى غير وَعْيٍ، فأخذَ يبكى بُكاءاً شديداً.

وعَلمَ النَّاسُ بما قالهُ عمَّار وقالوا: لقَد كَفَر عَمَّارُ بن ياسر. ويمرُّ عليه النبىُ فيراهُ باكياً حَزيناً فيسأله: ما يُبكيكَ يا عمَّارُ؟!

فيقول: آخذنى الكُفارُ وعَذبونى حتى قُلتُ كلاماً ما كان لى أن أقولَهُ.

فقال النبىُ: وكيفَ تجدُ قَلبك؟

قال عمَّارٌ: أجدهُ مطمئناً بالإيمان يا رسولَ الله.

فيمسحُ النبى دُموعَ عَمار، ويُربِّتُ على كَتفه وهو يقولُ:

- لا تَبْتَئس ولا تَحزْن يا عمارُ، إن عَادُوا إلى تعذيبكَ فقُلْ لهم مثل ما قُلتَ. وتَلى النبى عليه الآية:

﴿إلاَّ من أُكْرِهَ وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان﴾ [النحل: ١٠٦]

وهنا هَتفَ عَمَّارُ بفرحة: أحقاً يا رسولَ الله.. الحمدُ لله كثيراً.

واسترد عمَّارُ بن ياسرٍ سكينةَ نفسه وراحةَ ضَميره، وأصبح أكثر صُموداً أمام كُفار قريشٍ.

***

ويُهاجرُ النبى صلى الله عيه وسلم إلى المدينة، ويُهاجرُ إليها المُسلمونَ، ويَشرعُ النبى فى بناء مَسجد لإقامة الصَّلاة، ويجتمعُ المسلمونَ على العمل. الجميعُ يحملونَ الحجارَةَ ويُشيِّدون البناءَ، ويرى النبى عمارَ بن ياسر يعملُ بهمة وقُوة فيقتربُ منه ثُمَّ يقولُ على ملأ من الصَّحابة: «وَيْح ابنَ سُمية.. تَقتلهُ الفئةُ الباغيةُ»

ويرفعُ عمار نَاظريه إلى السَّماء متمتماً: اللهمَّ ارزقنى الشهادةَ فى سبيلكَ.

ويشهد عمار بن ياسر الغزواتَ كلها مع النَّبى . وكان عمارٌ دائمَ التأملِ كثيرَ الصَّمت ذاكراً لله . وكان النبىُ يحبهُ ويقولُ لأصحابه :

- «إن عمَّاراً مُلِىءَ إيماناً إلى مُشَاشه»

وذاتَ يوم كانَ عمارُ بن ياسر يعملُ بجوار جدار متهاو وفجأةً سَقطَ الجدارُ متهشماً فصاحَ المسلمونَ بفزع : ماتَ عمَّارٌ!

وأسرعَ بعضهم إلى النَّبى يَنْعى إليه عمار بن ياسر .

فقال النبىُ مُطَمئناً لأصحابهُ : اهدأوا . . ما ماتَ عمَّار ، تَقتلُ عمَّارَ الفئةُ الباغيةُ .

فتعجَّبَ الصحابةُ وعادوا إلى بيت عمار فوجدوهُ راقداً فى فراشه أصابتْهُ بعضُ الجُروح .

وتصعدُ رُوحُ النبى إلى الرَّفيق الأعلى ، ويَلى الخلافةَ أبو بكر الصِّديق فيُقاتل عمَّارُ المرتدين عن الإسلام ، ثُم يلىَ الخلافةَ عُمر بنَ الخطاب وينتشرُ الإسلامُ فى الشَّام ، ويُرسله عُمر والياً على الكُوفة .

وبعد مَقْتل عُثمان بن عفان ، يُبايعُ المُسلمونَ علىُّ بن أبى طالب للخلافة ، فيكونُ علىٌّ أميراً للمؤمنين . ورفضَ معاويةُ بن أبى سفيان بيعةَ الإمام علىّ بن أبى طالب ، وكان وقتها بالشَّام ، والتفَّ حوله كثيرٌ من المُسلمين رافضينَ بَيْعةَ الإمام علىّ طالبينَ الثَّأرَ لدمِ عُثمان بن عفان .

واعتبر علُّى بن أبى طالب ذلكَ الرفضَ تمرداً على دَولة الإسلام ينبغى قَمعْهُ حتى لا تحدثُ فتنةً . ولكنها حدثتْ .

خَرجَ علىّ بن أبى طالب بجيشٍ كبيرٍ لمواجهة مُعاوية ، وكان جيشُ

على بن أبى طالب فيه عمَّارُ بن ياسر وكثيرٌ من الصَّحابة .

والتقى الجيَشان فى موقعة صِفِّين . . المُسلمونَ يقاتلُ بعضهم بعضاً . إنها الفتنةُ الكُبرى .

كان عمارُ بن ياسر شَيْخاً كبيراً فى التِّسعين من عُمره يحمل سَيفهُ ويمتطى فَرسهُ ، ويشعرُ بقرب نهايته .

رفعَ عمَّارُ رايةً وراحَ يخطبُ فى المُسلمين : أيها النَّاسُ . . قاتلتُ بهذه الرايةَ مع رسولَ الله ، وها أنَذا أُقاتلُ بها اليومَ . أقاتلُ هؤلاء الذين يَزْعُمون أنهم يثأرونَ لعثمان بن عفان . إنهم يَزْعمون ذلك ، وما يُريدون إلا أن يكُونوا مُلوكاً جَبَّارينَ . . نفسى تُحدثنى أننا على الحقِّ وأنهم على البَاطل .

وراحَ عمارُ بن ياسر يَصُول فى الميدن ، وهو يتذكرُ قولَ النبى : «تَقْتلُ عماراً الفئةُ الباغيةُ»

وكان يشعر بأن نبوءة النَّبى له ستتحققُ ذلكَ اليوم ، فأخَذَ يُرددُ بفرحة طاغية : «اليومَ أَلْقى الأحبةَ . . مُحمداً وصَحْبةُ» .

وتدورَ موقعةُ صفِّين ، ويُقاتلُ الشَيخُ بحماس كأنه شَابُ فَتىً حتى يَلْقى الشهادةَ فى سبيل الله ، فيحملهُ أمير المؤمنيِّن على بن أبى طالب آسفاً حَزيناً ، ويُصلِّى عَليه فى جَمْع من المُسلمينَ ، ويدفنهُ علىّ بن أبىَ طالب فىَ ثيابه التى ضَمّختها الدماءُ .

«رضى الله عنه»

أبو الدَّرداء

كانَ لأبى لدَّرداء صَديقٌ حميمٌ هو «عبدُ الله بن رواحة»، وكان قَدْ أسلَمَ وآمن بدعوة مُحمد وقاتلَ مع المُسلمينَ فى معركة بَدْر.

كان عبدُ الله يدعو صَديقَهُ أبا الدرداء إلى الإسلام، وكان أبو الدرداء يرفضُ، فقد كان متعلقاً بالصَّنم بشدة.

ذاتَ يوم ذَهبَ عبدُ الله بن رَواحة إلى صَديقه (أبى الدرداء) وراحَ يحدثهُ: يا أخى إن الإسلامَ دينٌ يدعوُ إلى توحيد الله والمساواة والعدل بين النَّاس. فلم لا تَشْهدُ يا صديقى بأنه لا إله إلا اللهُ وأنَ محمداً عبدهُ ورسولهُ.

قالَ أبو الدرداء: لم يَطْمئنَ عَقْلى بعدُ إلى الدَّعوة الجديدة.

قال عبدُ الله: كيفَ؟!.. يا صَديقى إن الآلهةَ التى كُنَّا نعبدها ما هى إلا أصْنامٌ لا تَضرُّ ولا تنفعُ.. هى حجارةٌ صنعتها أيدينا، ووضَعتها أيْدينا، ثُمَّ نحن نركعُ لها ونسجدُ.

قالَ أبو الدرداء: دَعْنى يا صديقى وشَأنى.. وخْرَجَ عبدُ الله حَزيناً، ولكنَّه كانَ يَعْلَمُ أن صديقَهُ المخلصُ رجلٌ عاقلٌ يدير الأمرَ فى رأسه مرةً ومرات.

ذَهبَ عبدُ الله بن رواحة بَعد أيام إلى بيتَ صديقه فخرجتْ زوجتهُ أم الدرداء فسألها عنه فقالتْ: خَرجَ صَديقك.

فدخلَ عبدُ الله البيتَ قاصداً الحُجرة التى بها الصَّنمُ فحطمهُ وهو يُردد: لا إله إلا اللهُ.. ألا كُلُّ ما يُدْعَى مع الله باطلٌ، ثُمَ خرجَ وهو

يقولُ لزوجة صَديقه : أخْبريه بما صَنعتُ .

وعادَ أبو الدرداء آخرَ النَّار إلى داره ليَجد زوجتهُ تبكى خَوْفاً فسألها : ما يُبْكيكِ يا أُمَّ الدَّرداء؟

قالتْ : إن أخَاكَ عبدُ الله بن رواحة دخلَ الدَّارَ وفعَلَ ما تَرى !

فغَضب أبو الدَّرداء وراحَ يَمشّى فى الدَّار جيْئةً وذهاباً وهو يَرْطنُ بكلمات غَاضبة : ألم أقُلْ له دعنى وشَأنى !! . لن أتركَ دين آبائى وأجدادى .

وبعد قَليل هدأتْ نفسهُ وأخذَ ينظرُ إلى حُطام الصَّنم ويُفكر .

ثم قال فى نفسه : لو كان فى هذا الصَّنم خيرٌ لدفع عن نفسه الأذى . . يبدو أن صديقى على حق ، وأن محمداً عبد الله ورسوله .

وانطلقَ أبو الدرداء حتى أتى رسولَ الله وأعلنَ إسلامُه .

***

عادَ أبو الدرداء من عند النبى إنساناً آخرَ ، ويُحسُ بسكينة وسَعادة وراحة ، ويُردد ما سمعه من كلام القرآن . كلماتُ لا هى بالشِّعر ، ولاَ هى بالسِّحر ، لكنها تُريحُ القَلْبَ وتثيرُ الفكرَ . وأصبحَ أبو الدرداء من بَعدها يَجدُ مُتعةً وراحةً فى الاستماع إلى كلام النَّبى والجُلوس فى المسجد للتفكر والصَّلاة . وتَغيرتْ أحوالُه ؛ فزَهَد فى المال وأقْبل على طلب العلم ، وكان يطيبُ له الجلوسُ للتأمل والذكر .

وقال عنه النبى لأصحابه : «هو حكيمُ أُمتى . .»

فى غزوة أُحد كان أبو الدرداء يُقاتلُ فى سبيل الله مع جَيش

المسلمين، وشَهد الغزوات بعدها.

جاءهُ ذات يومٍ رجلٌ وهو يَصيحُ: يا أبا الدَّرداء.. يا أبا الدَّرداء.

التفتَ إليه أبو الدَّرداء وقالَ: ما الأمرُ؟

قال الرجلُ: احترقَ بَيْتكُ!

رد أبو الدرداء وهو هَادىءٌ واثقٌ: ما احترقَ!

ولم تَمْض لحظاتٌ حتى جَاءَ رَجلٌ آخرَ يقولُ: انبعثت النَّارُ في الدِّيار حتى إذَا اقتربتْ من بيتكَ طُفِئتْ.

قالَ أبو الدرداء وهُو يُغمض عَينيه: الحمدُ لله.. إني أعلم أن الله عزَّ وجَل لم يكنُ ليفعلَ ذلكَ.

سألهُ الرجلُ مَدْهوشاً: كيفَ.. كيفَ يا حكيمَ الأمة؟!.

قال: كلماتٌ سمعتها من رَسول الله، من قَالهُنَّ حَين يُصبحُ لم تُصبهُ مُصيبةٌ حتى يُمسي.

قالوا: ما هي يرحمكَ الله.

قال: «اللهم أنتَ ربي لا إله إلا أنتَ، عليكَ توكلتُ وأنت ربُ العرش العظيم، ما شاءَ الله كانَ، وما لم يَشأ لم يكن. ولا حَولَ ولا قُوةَ إلاَ بالله العَليّ العظيم. أعلمُ أن الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاطَ بكل شئ علماً. اللَهم إني أعوذُ بكَ من شَرِّ نفَسي ومن شَرِّ كل دابةٍ أنتَ آخذٌ بنَاصيتها إن ربي على صراطٍ مستقيم».

***

وتمضى الأيامُ، وفى خلافة عُمر بن الخطاب يُرسل يزيدُ بن أبى سُفيان إلى أمير المؤمنين ليبعثَ إليه بعض حفظة القرآن ليعلمون النَّاسَ فى الشَّام، فيُرسلُ أمير المؤمنين أبا الدرداء إلى دِمشقَ ليُعلم أهلَها كتابَ الله وسُنَّةَ نبيه عليه الصلاةُ والسلامُ.

ويعيشُ أبو الدرداء هُناكَ عابداً لله زاهداً فى الدُّنيا.

وفى خلافة عُثمان بن عفان ولِىَ القضاءَ على دمشقَ. فكان أبو الدَّرداء قاضياً عَادلاً، عَالماً باستنباط الأحكام، واعظاً للنَّاس.

كان أبو الدرداء يَسيرُ فى إحدى طُرق دمشق ذاتَ يوم عندما رأى نَفَراً من النَّاس قد احتَشدوا على رَجلٍ يضَربونه ويشتمونَه، فاقتربَ منهم وسألهم، ما شَأنهُ؟

قالوا: هذا الرجل وقَع فى ذنب كبير.

أشْفق أبو الدرداء على الرجل وقال لهم:

- أرأيتُم لو وَقعَ فى بئرٍ أفلم تكونوا تستخرجونهُ منه؟!

قالوا: نعم.

قال: يرحمكم اللهُ.. لا تَسبُّوا الرجلَ ولا تضربوهُ، وإنما عظُوهُ وبَصرُّوهُ، واحمدوا اللهَ الذى عافاكم من الوقُوعِ فى ذَنْبه.

دُهش القومُ من كلمات القاضى وسألوهُ: أفلا تَبغضُه؟

قال أبو الدرداء: إنما أبْغضُ فعْلهُ، فإذا تَركَهُ فهو أخى.

وهنا بكَى الرَّجلُ بكاءاً شديداً، وأعلَن توبتهُ واستغفارُه لله.

وذاتَ يوم جاءَ يزيدُ بن مُعاوية إلى أبى الدَّرداء ليخطبَ ابنتهُ المؤمنة الحسناءُ. فاعتذرُ أبو الدَّرداء للرجلِ اعتذاراً مُهذَّباً.

فسألتهُ زوجتهُ: وَيْحَكَ.. أترُدُّ يزيدَ بن مُعاوية وأنتَ تَعلمُ مكانتهُ فى النَّاس؟!

فقالَ أبو الدَّرداء: يا أمَّ الدَّرداء.. إنى فكرتُ فى مَصْلحة ابنتى (الدَّرداء) إذا عَاشَتْ فى بيت يقومُ على خدمته العبيدُ والخدمُ ويمتلئُ بالنَّعيم والتَّرف، وانشغالها بمَتاع الحياة.. فأين دينها يومئذ؟!

وبعد أيام خَطبها رَجلٌ مؤمنٌ من بُسطاء المُسلمينَ فقبلهُ أبو الدَّرداء زَوْجاً لها - بعد أن خَيَّرها ووافقتْ هى.

وكانتْ الفتاةُ ناضجةً عاقلةً طائعةً لله.

ويشتدُّ المرضُ بأبى الدَّرداء، فيزورهُ أصحابُهُ ويسألونهُ:

- ما تَشْتكى يا أبا الدرداء؟

فيقول: ذُنوبى..

فيسألهُ أصحابهُ: وما تَشْتهى؟

فيقولُ: عَفْوَ ربى.

وتصعدُ رُوحه الطَّيبةُ إلى بارئها ولسانهُ رَطْبٌ بذكرِ اللّه.

(رضى الله عنه)

سلمان الفارسى

كانَ هناك فَتَيان يَسيرن عَبْرَ الحُقول فى طَريقهما إلى القَرْية، عندما لَمَحا من بَعيد كُوخاً صَغيراً تُحيطهُ زُرُوعٌ وأَشْجارٌ، وهُناكَ كانَ يَقفْ أمام الكُوخ شَيْخٌ طَويلُ القَامة، مَهيبُ الطَّلعة يَرتْدى عَباءةً من صُوف.

اقْتربَ الفَتيان أكْثر من الشَّيخ الذى كان يَضَعُ على الأرض حزْمةً من جَريد النَّخيل ويَجْلسُ فى ظلِّ شَجرة أمامَ داره المتُواضعة.

فجأةً صاحَ أحدهما: انْظُر يا صَديقى، إنَّه الشَّيخ الذى يَؤمُّنا فى الصَّلاة ويَخطبُ فى النَّاس يومَ الجُمعة!

قالَ الفَتى الثَّانى الذى لم تُفارقُه الدَّهشةُ: نعم.. إنه «سَلْمانُ الفَارسىُّ» والى المَدينة، يَا لهُ من شَيْخٌ عَجيب.. أنظُر إليه.. إنهُ يعملُ، يَجدْل الخُوصَ ويَصْنع مكْتلاً، انْظُر إلى دَاره، يبدو أنهُ يُفَضلُ العَيْشَ فى هذا الكُوخ بَدلاً من أنْ يَتَّخذ لنفسه قَصْراً كَبيراً وبُسْتاناً جَميلاً.

قالَ الفتى الأولُ: لقد سَمعتُ الناسَ يَتحدثونَ عنهُ كَثيراً، يقولونَ إنهُ وُلدَ هُنا فى فَارس، ثم هَجَرَ أهلُه ورَحلَ إلى بلاد العَرب، وعَاد مع الفتحِ الإسلامى.

اقتربَ الفَتيان من الشَّيخ وقالا: السَّلامُ عليكم أيها الشَّيخُ الكَريمُ.

نظَرَ الشَّيخُ إليهما وقال: وعليكمُ السلامُ ورحمةُ الله.. تَفضَّلا.

جَلسَ الفَتيان بجواره وقال الأولُ: سَمعنا يا عمُّ أنَّكَ نشأتَ مَجُوسياً في هذه البَلاد ثم هَجرتها زَمناً وُعْدتَ مع المُسلمين فَاتحاً حتى أصْبحتَ علينا وَالياً وحاكماً.

قالَ الشيخُ: نعمْ يا أبنائي.. نَشأتُ هُنا منذُ سَنوات طَويلة.

قال الفَتى الثَّاني: هَلا حَدَّثتنا أيها الشَّيخُ الكريمُ عن هذه الأيام.

تبسَّمَ الشيخُ الذي لا تَزالُ أصابعُه تَجدلُ الخُوصَ، ثم سَحبَ نَفساً عميقاً وحَدَّقَ في الأُفق بَعينين حَالمتين، تَنْظران إلى بَعيد وقالَ:

- والله يا أبنائي هَذا أمْر تَطيبُ إليه نَفْسي، إنها رحلةٌ طويلةٌ كانت شاقَّةً حيناً، وكانتْ مُمْتعةً كَثيراً، لكنني والحمدُ لله تحملتُ الكثيرَ من العَناء في سبيل الحقيقة. أنتم أحَسنْ حَالاً اليومَ، فقد ورثْتُم الإسلامَ عن آبَائكم، وخَصَّكُمَ اللهُ بهذه النِّعمة دُونَ تَعب. لكنَني مَارستُ الضَّلاَلَ أحياناً أو سرْتُ في الظُلمات مُدةً، وتحمَلتُ مرارةَ الجُوعِ والحرمان والعبُودية حَتى هَداني اللهُ إلىَ الإسلامِ.

قالَ الفتى الأولُ: حَدِّثنا يا عمُ عن رحلة حياتكَ منذُ كُنتَ صَبيِّاً مثلنا، نريدُ أن نعرفَ القصةَ من أولهاَ، لاَبد أنَّها مُمْتعةُ ورائعةُ وسَنُصغي إليكَ.

سحبَ الشيخُ سلمانُ الفَارسي قطعةَ خُوص ووضَعها في طَرْف المكْتل، ثُمَّ راحَ يَحكي ويَجْدلُ. قال: لم يكن إسَمي «سَلْمانُ» بل كانَ «مَابَه»، ولدتُ في قرية من قُرى أصْبهان وكان أبَي دَهْقانَ القَرية، أي عُمدَتها.

كان أبى شديدَ التَّعصب لدينه (المجوسية)، فنشأتُ مَجُوسياً، وكُنتُ مَسؤُلاً عن المَعبد المقُدَّسَ، بيت النَّار، وكُنتُ أسألُ الهَرابزةَ رجالَ الدين عن هذه النَّارَ الَتى يأكلُ بعضُهَا بَعْضاً والتى يُقدَّمُ لها النَّباتُ المُقدَّسْ لكى تظلَّ مُوقدةً. وكُنتُ أسألهم عن الله فيُشيرون إلى النَّار: إنهُ هنا! وكنتُ أُحدِّقُ فى النَّار بشدة لعلى أرى فيها اللهَ، كما يَزْعمون، ولكن كانت ألسنةُ اللَّهب تَتراقصُ أمامى ساخرةً، واقْتربت منها أكثر لعلِّى ألمحُ فيها الربَّ. فيَجذبنى الهَرابزةُ من ثيابى بفزعٍ: ابْتعَد عن النَّار المُقدسة لئلاَّ يُصيبكَ الربُّ بأذىً.

وكنتُ أسألُ نفسى بسخرية: أىُّ أذى؟!.. وأين هو ذلكَ الربُّ؟ ولَمْ يطمئنْ قَلْبى إلى هَذا الوَهمُ الواضحُ، ولكنِّى شَأنُ النَّاس من حَوْلى كنتُ أُقدمُ لهذه النَّار النباتَ المُقدَّس، وأُصلِّى لها معهم وأحفظُ الطُقوسَ. وكان أبى يَملكُ ضَيْعةً كبيرةً، أرسلنى إليها يَوْماً لتفقُّد أحوالَ المُزارعيَن والرُّعاة فيها. فخرجتُ.

وفى الطريق كُنتُ أرى الطَّبيعةَ من حَوْلى جَميلةً، الأشجارُ والأزهارُ والطُّيورُ التى تُحلِّقُ فى السَّماء، واهْتزَّ قلبى لروعة الكَوْن، وفجأةً سَمعتُ تَرْنيماً شَجيّاً فتلفتُ حَوْلَى فلمحتُ بناءاً تُحيطهُ أشجارٌ وخُضْرةٌ، فاقْتربتُ منه لسماع الصَّوت، وكانْت كنيسةً للنَّصارى. فَدخلتُ، وجَلستُ أنظرُ إلى صَلاتهم وأسمعُ لشدْوهم، وبَعد الصَّلاة سألتُ شَيخْهم عن هذا الدِّين. فَعرفتُ أنهمَ نصَارى يعبدونَ اللهَ وأعجبنى كلامَهم وقضيتُ اليَومَ معهم لم أذَهَبْ إلى ضَيعة أبى حتى غَابتْ الشَّمسُ وجَاء المَساءُ ولم أرْجع إلى البَيْت.

وسألتُ الشَّيخَ عن مَوطنِ هذا الدِّين، فأرشَدني إلى الشَّام.

قلتُ في نفسي: الشَّامُ؟!... لابُد من الذِّهابِ إلى هُناكَ ولو كَلفَّني ذلكَ حيَاتي.

وعَلمَ أبي أنني لم أذهبْ إلى الضَّيعة، وسألني: أينَ كُنتَ؟ قلتُ: يا أبتِ.. إنني مَررتُ على قَومٍ يُصلونَ في كَنيسةٍ ورأيت صَلاتَهم فأعجبَتني، واستمعتُ إلى كلامِهم فأحَسنتهُ.

وتَحاورتُ مع أبي لكنهُ طَاشَ وَعْيهُ عندما وَجَد إنْقَلاباً في فكْري ويَقيناً في ضَميري على بُطلان المَجُوسية، وأنَّني أحنُّ إلى النَّصرانية فراحَ يَضْربني بالسَّوط بلا رَحْمة كأنني رَاعٍ مُذْنب، وحَبَسني، كانَ أبي يُعدَّني كي أكُونَ دَهْقاناً من بَعْده وأرثَ عنهُ نَصيباً من الضَّيعة، لكنني زَهدتُ في ذلكَ كُلّهُ، وفَضَّلتُ أنْ أبْحثَ عن الحقيقة...

وتمكنتُ بعد أيام من الهُروب والسَّفر مع القَافلة المُتجَّهة إلى الشَّام. وكانتْ رحلةً شَاقَّةً، تحملتُ فيهَا الجُوعَ والعَراءَ. وهُناكَ سألتُ عَن أفْضلِ رَجُلٍ في هَذا الدينِ؟، فَقيل لي: إنهُ الأسْقفُ صَاحبُ الكنَيسةَ، فَأتيتهُ وأخْبرتُه بقصَّتي، وأقمتُ معه مُدة أخدمُ وأُصلي وأتَعلَّم.

وكُنتُ أراقبهُ لأتعلمَ من عبادته، لكنَّني عَرفتُ بَعد مُدة أنهُ رَجلُ سُوء.

كانَ الأسقفُ يأمرُ النَّاسَ بالصَّدقات ليُوزعها على الفُقراء ثُمَّ يكنْزها لنفسهِ ولا يُعطي المُحتاجينَ شَيْئًا منَها، حتى جَمعَ سَبْعَ جرارٍ

من الذَّهب ، فكَرهتهُ، وتحمَّلتُ خدمَتهُ على مَضَض، وعندما ماتَ اجتمعتَ النَّصارى لدفنه فأخبرتُهم بما رأيتُ منه، فلمْ يُصَدقونى حتى دَلَلتهم على مكان الذَّهبَ.

فلَّما رأوا جرارَ الذَّهب دَهشُوا وقَالوا: يا لَهُ من رَجل سُوء، كان يغْررُ بنا وَيكنزُ المال لنفسه ويَحرمُ الفُقراءَ، والله لا نَدْفنهُ، ثَمَّ صَلبوهُ ورَجموهُ بالحجارة. وجَاءوا بأسْقُف آخرَ وكانَ شَيْخاً طيباً زَاهداً فى الدُّنيا عَالماً بالدِّين، وكان نَشطاً فى صَلاته، فأحببتُهُ وأحبَّنى. وعَلمتُ منهُ الكَثَير حتى اشْتَّد عليه المرضُ. وعَندما حَضَرتهُ الوَفاةُ بكيتُ وسألته: بماذا تَنْصحنى . . ومعَ من أكونُ من بَعدك؟

قال: أىْ بُنى . . لا أعْلمُ أحداً على ما كُنتُ عليه إلا رَجُلاً بالمُوصل؛ لم يُحرِّف ولم يُبَدِّل فى دينه فالْحق به، وسَمَّاهُ لى. فذهبتُ إليه وأقَمتُ معه ما شَاء اللهُ لى أنَ أُقَيمَ حتى حَضَرتُه الوَفَاةُ، فدلَّنى على عَابد فى «نصيبَيْن» وأقمتُ معهُ مُدةً حتى نَصحنى قبلَ مَوتْه بأن ألْحقَ برجَل فى «عَمُورية» فى بلاد الرُّوم. فرحلتُ إليه وأقمتُ معهَ.

كانَ الرجلُ عَابداً زاهداً، يُقيمُ فى كُوخ ويأكلُ من كَسْب يَده. فتعلمتُ منه الزِّراعةَ والرَّعىَ ونَسْج الأقمشة حتى اكتسبت عندهُ بَقرات وغُنيمات، وعندما حضرتهُ الوَفَاةُ سَألتَهُ: إلى من تُوصى بى أيَهُّا الشيخُ العابدُ؟

فقالَ: يا بُنَّى ما أعرفُ أحَداً على مثل ما كُنَّا عليه، ولكن قَد أظَلَّكَ نبىّ يُبعثُ بدين ابراهيمَ حَنيفاً، ثُمَّ يُهاجرْ إلى أرض ذَات نخل وحجارة سَوْداء، فإن استَطعتَ أن تَذهبْ إليه فافْعل. وإن لَهّ آياتَ لا تَخْفى . .

قلتُ: ما هى يَرّحمكَ اللهُ؟

قال: هو لا يأكلُ الصَّدقةَ، ويَقْبلُ الهديَةَ، وبَيْن كَتفيه خَاتَمُ النُبوة.

وأصْبحتُ أنتظرُ بشوق رَكْباً مُتَّجهاً إلى تلْكَ البلاد، حتى مَرَّ بى ذاتَ يومٍ ركبٌ من التُجار، علمتُ أنهمَّ من جَزيرة العَربَ.

كانَ الشَّيخُ لا يَزالُ يَجْدلُ الخُوصَ ويَحْكى قصَتهُ والغلامان أمَامُه يُصغيان بانْتباه وخشُوع.

نَهضَ سَلمانُ الفارسىُّ ـ أميرُ المدَائن ـ ودخلَ دارةُ ثم عَادَ بطبقٍ فيه تمرٌ وقَدحٍ به لَبنٌ وقدَّم ذلكَ إلى الغُلامينَ:

- كُلُوا باسم الله.. إنه من تَمْرِ المدينة التى أحبهـا.. إنهُ من يَثْرب.

قال: أحَدُ الغُلامين: شُكراً لكَ أيها الأميرُ.

وقال الآخرُ: نُريدُ أن نسمعَ بَقيةَ القصة.

قالَ سلَمان الفَارسىُّ «الأميرُ»: عندما عَلمتُ أنَّهمُ من جَزيرة العَرب فَرحتُ، وقُلتُ: أعطيكم بقَراتى وغَنمى على أن تحملونى معكُم إلَى أرضكم. قالوا بعد تردد: نعَم.

وانْطَلق الرَّكبُ بنا على إيقاع الحادى، حتى إذا وَصَلْنا إلى وادَى القُرى» غدروا بى وقَيَّدونى وبَاعونى إلى رَجُل يهودى. وهكذا صرْتُ عَبْداً، وعندما رأيتُ نَخْلاً كثيراً قلتُ فى نفَسى: لعلها تكونُ البَلَدةَ التى وَصَفها العَابدُ لىَ، مَهجْرُ النَّبى المُنتظَر. وأقْمتُ عندَ هَذا الرَّجل

مُدةً أعملُ فى خدمته وأتحملُ سَماجَتَه، حتى أتاهُ يوماً رَجُلٌ من يَهُود بَنى قُرَيظة، ولما رآنى طَويلَ القَامة قَوىَّ البنية اشْترانى منه بثمن كَبير، وأخَذَنى معهُ إلى داره فى يَثْرب، وعندما رأيتُ المدينةَ هَتفَ قَلْبىَ: إنها البلدُ الذى وَصَفها العابدُ لى. فحمدتُ الله، وقُلتُ: لا يَهُمنى إن كُنتُ سَيداً أمْ عَبْداً ما دُمتُ أسْعى إلى الحقيقة.

وأقَمتُ فى بَنى قُرَيظة مع هَذا اليَهودى أعملُ فى حَديقته حتى بَعثَ اللهُ رسَوله وقَدمَ المدَينة ونَزلَ بقباء.

وذاتَ يَوم بينما كُنتُ فَوقَ نَخْلة أجْمعُ ثمرهَا، وصَاحبى جَالسٌ تحتها إذ أقْبلَ عَليه رَجُلٌ من يَهود بَنىَ عَمِّه وسَمعتُه يقولُ لهَ: قاتلَ اللهُ الأوسَ والخَزْرجَ، إنهم الآنَ مُجتَمعونَ على رَجُلٍ قَدمَ عليهم من مكَّة يَزْعُم أنَّهُ نبىٌ.

ولم أكَدْ أسْمعُ كلمةُ نَبىٍّ حَتى طرْتُ فَرحاً وارتجَّتْ النخلةُ وأنا أنزلُ مُسْرِعاً، وكدتُ أسْقطُ فوقَ صَاحبى.

وسألتُه بلهفة: ماذا تَقُولُ، ما الخَبرُ؟

رَفعَ سَيدى يَدهُ ولَطَمنى بشدةٌ وهو يَصيحُ: مالكَ أنْتَ وما نَتحدثُ فيه؟.. اذْهب لعملكَ. وهَممتُ أن أصْفعهُ لكنى كَظمتُ غَيْظى وأمْسكتُ نَفسْىَ، وانْصرفتُ من أمامهُ وفى نفسى مشَاعرٌ مُختلطةٌ.. بين فرحّة بنبأ قدُوم النِّبى، وحُزْن وأسىً على هَذا الهَوان.. وتحَدَّرتْ من عَينىً دَمعةٌ وأنا أجلسُ فى ظلِّ نخلة بَعيدة أحِّدقُ فَى السَّماء، وأتذكرُ أبى يوم لَطمنى عنْدما عَلَمَ أننى تركتُ دينهُ، وأتذكرُ نَشْأتى

التى كانتْ فى عزٍّ وتَرَفٍ، ثُمَّ حالى الذى تَبدَّلَ من سَيدٍ مُطاعٍ إلى عَبْدٍ مَهِينٍ.

وانتظرتُ حتى جَاءَ المسَاءُ، ثُمَّ خرجتُ خُفيةً وذَهَبتُ إلى مكان النَّبى بقباء، وعندما دَخلتُ عليه وكَانَ مَعهُ نفرٌ من أصحابه قلتُ: إنكم أهْلُ حَاجة وغُربْة وقد كان عندى طعامٌ نَذَرتهُ للصَّدقة، وقَدْ رأيتكُم أحَقُّ النَّاسِ به فَجَئتكُم به. ثُمَّ وضعتُ بين أيْديهم سَلَّةً فيها تَمرٌ ورُطبٌ.

فقال النَّبىُ لأصحابه: كُلُوا باسم الله، وأمْسَك هو فَلَمْ يَمُدُّ إليه يَداً. وهُنَا شَعرُتُ بفرحَة طَاغية، وهَمَسَتُ فى نفسى وأنا أنْظُر إلى النَّبى: هَذه وَاحدةٌ. إنهٌ لا يَأكُلُ الصَّدقةَ. وبتُّ لَيلَتى لا أنامُ من الفَرحة وأنا أرددُ: - يَرحَمكَ اللَّهُ يا شَيخَ عَمُورية. لقد زَوَّدتنى بعلاماتَ أعْرفُ بها النَّبى الذى كُنتَ فى شَوْقٍ تَنْتظرهُ.

وفى اليوم التَّالى غَدوتُ إلى رسول الله وأنا أحْملُ سَلَّةً أخُرْى بها تَمْرٌ ورُطَبٌ، وعنْدما جَلَسَتْ بَين يدَيه أطَيلُ النَّظرَ سألنى النَّبىُ:

- إيه يا سَلْمان؟

قُلتُ: إنى رَأيُتكَ لا تَأكُل الصَّدقةَ، وعندى شَيءٌ أُحُبُ أن أكْرمكَ به هَديةً. ووضَعت الطَّعامَ بين يديه.

فمدَّ النَّبىُ يده إلى الطَّعام وهو يَقول لأصحابه: كُلُوا باسم الله. وأكَل مَعَهمُ.

عندئذ سَمعتُ قَلْبى يهتفُ بفرحة : إنهُ يأكلُ الهدية . . يَرْحمك اللهُ يا شَيَخ عَمّوريَة ، هَذه هى العَلامةُ الثّانيةُ للنّبى الذى كُنْتَ تنتظره .

مكَثْتُ مُدةً فى خدْمة اليَّهودى ، وذَات يَوْم كانَ النَّبىُ فى البقيع يَدْفنُ جثّة أحد أصحابَه ، فاقتربتُ منهُ وأنا أنتظرُ أن تَنْكشفَ العَباءةُ عن ظهْره ، وأحسَّ بى النبّى وعَرفَ غَايتى ، فألْقى رداءَةُ عن ظهْره فرأيتُ خَاتَم النَّبوة فاْجْهشَتُ بالبَكاء وقَبلت النَّبى ، ودَعانى النَّبى - عليه الصَّلاةُ والسَّلام فجلستُ بين يَدَيه أحْكى له قصَّتى - كما أُحْكيها لكم الآنَ يا أبنائى - وأطْمأن قلبى وأسْلَمتُ . وقَال لى النَّبىُ : يا سَلْمان كَاتب سيّدكَ حتى يَعْتقكَ فكاتَبْتهُ ، وتعاونَ النَّبىُ وأصحابُه فى تحرير رَقَبَتى . وعشْتُ معَ المُسلمينَ حُرّاً مُسْلماً .

سكتَ أميرُ المَدائن - سَلْمانُ الفَارسى - لحظةً وهو يَتناولُ عُوداً من الخُوص ويَجْدلُ قليْلاً .

قال أحدُ الفَلاحين : هيه . . ثُمَّ ماذا يا عَمُّ؟

قال سَلْمانُ الفَارسىُّ : ثم عشْتُ مع المُسلمينَ ، وكُنْتُ أحْضر مجالسَ العلمْ ، وتزوجتُ إمرأةً من كنْدةَ . ولم أحْضر غَزْوتى بَدْر وأُحُد لأننى كُنْتُ حينها عَبْداً .

كانتْ أولُ غَزْوة أشْهدها مع النَّبى هى غَزْوةُ الخَنْدق .

كان نَفرٌ من زُعماء اليَهود قد خَرَجوا قَاصدينَ مكّةَ ، وهُناكَ تعاَهدوا مع المُشركين على أن يُعاونوهم فى حَرْب حَاسمة تعصفُ بهذا الدِّين الجديد ووضعوا خُطةً غادرةً ، وهى أن يُهَاجم قُريش وَالقَبائلُ

الأُخرى المدينةَ من خَارجها، بينما يُهاجمُ يَهودُ بنو قُريظةُ المُسلمينَ من الدَّاخل. وبهذا يقعَ المُسلمونَ فى كمينٍ لا يَخْرجون منهُ.

وعَقَد النَّبىُ مَجْلساً للتَّشاور فى أمْر الحَرب. وهُنا اقْتَرحتُ على النَّبى بَحفر خَنْدق حَوْلَ المدينة مَن الجهةِ التى لَيس بها جِبالٌ، لأننى كُنتُ عَليماً بفُنون الحَرْبِ فى فارَس.

ووافقَ النَّبىُ ﷺ على اقْتراحى، وبدأ المُسلَمون فى العَملِ والنَّبىُ معنا يَضْربُ الأرضَ بالمعْولِ ويحملُ التُّرابَ.

وتم حَفْرُ الخَندق حَولَ المدينة، وجَاءتْ جُيوشُ الأحزاب وحاصَروا المدينةَ شَهْراً دُونَ أن يَجْرؤ فارسٌ على عُبور الخَنْدق أو اقْتحام المدينة. وأرسلَ اللهُ عليهم ريْحاً عاصفةً قلعتْ خَيامهم، وأطْفأتْ مَوائدَهم فعادُوا إلى مكةَ مَهْزومين.

وكَفى اللهُ المُسلمينَ القتَالَ.

وشَهدتُ الغَزوات بعد ذلكَ مع النَّبى، وشَاركتُ فى الفُتوحات أيامَ الخليفة أبو بكر الصِّديق، وفى معركة القَادسية كُنتُ مع الجيشَ المسلم بقيادة سَعد بن أبى وقاص.

وعندما عَبرنا نَهرْ دجْلة من قرية «بَهْرسير»، وكانَ بعضُ الفُرس قد تَحصَّنوا داخلها. تَفاوَضتُ معهمَ حتى قَبلوا بدفعِ الجزْية وبَقُوا على دينهم وتمَّ فَتْحُ القُصور.

كان سَلْمانُ الفَارسى ـ الأميرُ على المَدائنِ ـ لا يزالُ جَالساً أمامَ داره

يَجْدلُ الخُوصَ، ويَقُصُّ على الفَلاحين رحلتهُ من الشَّك إلى الإيمان. وهُنا دَوَّى فى الأرْجاء صَوتُ المؤذن: اللهُ أكبر.. اللهُ أكبَر.

تَركَ الأميرُ الخُوصَ والمكْتلَ وقامَ ليتوضأ. وشكَرَ الغُلامان الشَّيخَ وتَوجها إلى المَسجد.

وعاشَ سَلمانُ الفَارسىّ زاهداً فى الدُنيا، كانَ طَعامُه يَسيراً، وقَلْبُهُ بَسيطاً، ومَسْكنُه كُوخاً صَغيراً فى العَراء.

واشْتاقَ يَوماً لرؤية صَديقه أمير المؤمنين عُمر بن الخَطَّاب. فركبَ دابَتهُ وإنطَلَقَ يحملُ زَاداً يَسيراً مُتَوجهاً إلى المدَينة، وعَلم عُمَر بذلكَ فجمعَ أصحابُه قائلاً:

- هيَّا بنا نَخرجُ لاستقبال سَلْمان.

وخرجَ الصَّحابةُ لاستقبال سَلْمان الفَارسى عند مشارف المَدينة.

وعندما اشتدَّ عليه مرضهُ طَلبَ من زوجته أن تَأتيه بشئ كان يحتفظ به.. صُرَّةً من مسْك كان غَنمها يَومَ فتْح جُلْواء وادَّخرَوها ليوم وَفاته.

دَعا سَلمانُ زوجته المؤمنةُ أن تَنْثُر هذا المسكَ حَولَهُ ففعلت.

وبعد حين صَعدتْ روحه الطيبةُ إلى بارئها. ودُفنَ فى قَريةٍ بجوار المدائن. رَضىَ الله تعالى عنه.

تَمَّت بحَمْد الله

الدار يجمعُ الحطبَ ويُؤجِجُ ناراً لطهو شاة كبيرة، كان قد فَرَغَ لتوه من ذَبْحها وسَلْخها.

وَضعَ الفَتى الشاةَ على السَّفود، وجَلسَ أمامها يُقلبها ببطء وحَذر، وكان الضيوفُ من بنى جُمَح جالسينَ أمامَ الخيمةِ يتَسامرون رَيْثما يَتمُ تجهيزُ العَشَاء.

الوقتُ يَمرُّ بطيئاً، ورائحةُ الشِّواء تملأُ المكانَ، وأُذنُ الفتى تلتقطُ كلمات حَادة وعبارات سَاخرة وحائرة.

صاحَ أحدُ الرجال ثائراً: إنّ مُحمداً كاذبٌ.. يَدَّعى أنه نبىٌّ مُرسل. لا أدرى لماذا يَخرجُ من بنىَ هاشمِ نبىٌ ولا يخرجُ من بنى جُمَح؟!

وقال رجلٌ آخر ساخراً: أنتركُ الأصنامَ.. ونعبدُ إلهاً واحداً؟! أجعلَ مُحمدُ الآلهةَ إلهاً واحداً؟! إن هذا لشئٌ عجيبٌ!! إن محمداً لا شكَّ مجنونٌ، ما سمعنا بهذا من قبلُ.

قال رجلٌ ثالثٌ بصوت هادئ: إننى ـ والحقَّ أقولُ ـ لم أعهد عليه الكذبَ، ولقد نَشَأَ محمدُ بيّننا صادقاً أميناً، وعاشَ بيننا عاقلاً ونزيهاً. لكنى أتساءلُ: كيف نتركُ ما كان يعبدهُ آباؤنا؟!.

قال أميةُ بن خلف ـ صاحب الدار: نحنُ نعلمُ ذلكَ، وما كان مُحمدُ يوماً كاذباً ولا ساحراً ولا مَجنوناً، لكن لابدَّ من وَصْمه بذلك حتى نَصُدَّ عنه الذين يُسارعون إلى دينه، وقَبْل أن يَحْظَى بمجد وشُهرْة بَيَن العرب.

ثم صاحَ أُميَّةُ: يا بلالْ.. أنتَ أيها الحَبشىِّ. هَل فرغتَ من طهوِ الطَّعامِ؟

لم ينتبه الفتى إلى النِّداء فقد كان غارقاً فى التفكير فيما يقولهُ هؤلاء الضيوف.

صاحَ أميةُ بغضب أشدّ: أنتَ أيها العبدُ الأسودُ، ألا تَسمعُ؟!

نَهضَ بلالُ مُسْرعاً وقال: لَبيَّكَ سيدى!

سأله: هل أصابكَ صَمَمٌ؟! أُناديكَ فلا تردَّ. هل فرغتَ من إعداد الطَّعام؟

- نعم يا سيدى، سأرفعُ بعد قليل الشَّاةَ من على السَّفود.

وضَعَ الفتى الشاةَ المطهوةَ أمام الضيوف، ثم انزوى فى رُكن من الدار حتى يَفرغَ الرجالُ من طعامهم. وبعَد قليل رَفعَ المائدةَ وراحَ يدورُ عليهم بأقداح النَّبيذ. كان حَديثَهُم وسَمَرُهُمَ لا يزالُ دائراً عن ذلك الرجل الذى يُدعى مُحمدٌ الذى أتى بدينٍ جَديد وأنه يخرجُ وأتباعُه فى شعاب مكةَ للصلاة.

كان الفتى بلال بن رباح عبداً حبشياً عند أُمية بن خَلَف أحدُ شيوخ بنى جُمَح، وكانت حياتُه كُلُّها عَناءاً وتعباً، وأيامُه متشابهةً، وأحلامهُ وآماله سَرَاباً، فهو لا يملكُ من أمْره شَيْئاً.

سَمعَ بلالُ من تهامُس أفراد القبيلة، ومن تَحاوُر أصدقاء سيده عن مُحمد بن عبد الله، وعنَ الدِّين الجديد، وكان حديثهُم يَطْفحُ حقْداً وكبراً، فأثار ذلكَ تفكيرهُ، وودَّ لو رأى بنفسه مُحمداً واستمع إليه.

***

فى هَدْأة الليل خَرجَ أبو بكر الصديق، وكان قد آمنَ بدعوة مُحمد وكان يدعو إليها سراً أصدقاءهُ وكُلُ من يتوسمُ فيه الخيرَ.

توجه الصِّديقُ إلى دار أُمية بن خلف، ونادى عليه، فخرجَ إليه

بلالُ وعندما رآه بلالُ هتفَ بدهشة :

من؟! عبد الله بن أبى قُحافة . تفضل ، هل تُريد سيدى أميةَ؟

قال أبو بكر بصوت خافت : كلا . . بل أُريدك أنتَ يا بلال ، أنا جئتُ لأخبركَ بنبأ عظيمٍ . . ظَهَر نبىٌّ هذه الأُمة ، إنه مُحمدُ بن عبد الله . فقد أوحى ألله إليه أن يدعو النَّاسَ إلى عبادة الله وحده ولا يُشركونَ به شيئاً .

تذكَّر بلالُ كلامَ القبيلة عن محمدٍ فسأل : وهل اتبعهُ أحدُ من قريشٍ؟

قال أبو بكر : نعم . . آمنَ به بعضُ عَشيرته وأصحابه ، وهو يجتمعُ بهم فى شعاب مكةَ بعيداً عن أعين الناس ، يُعلمهمَ كلامَ الله ويُصلى بهم .

فرحَ بلالُ فرحاً شديداً ، وتَلفَّتَ أبو بكر حوله لينظرَ هل يراهُما أحدٌ من الناسِ ، ثم انصرفَ .

وفى اليوم التالى غَافلَ بلالُ سيدهُ وتسلَّلَ إلى شعْب أجَيْاد خارج مكةَ وجلس يُصْغى باهتمام إلى كلام النبى ﷺ فحَنَّ قلبُه ، وجَاشتْ مشاعرُه ، وأعلنَ إسلامه .

ونصحه النبىُ أن يُخفى إسلامُه حتى لا ينالَ من سيده الأذى .

كان هذا اللقاءُ قد فَجَّر طُوفانَ المشاعر فى نفس بلال ، فأصبحَ يُقْبل على الحياة بسعادة ، ويُنجز عمله بهمةَ وسُرعةَ ، وبين الحين والآخر يتسللُ خُفيةً إلى شعاب مكةَ ليحضرَ اجتماعَ النبى مع أصحابه ، ويسمعَ القرآن ، ويُصَلى لله .

وذاتَ يوم يَنْسى بلالُ نفسهَ فى غمرة العمل، فإذا به يتلو آيات من القرآن، ويسمعه أُميةُ بن خلف فيدرك أنه أتَّبعَ مُحمداً وآمنَ بدعوته. فيطيشُ وعيه ويجره بغلظة علىً الرمال الساخنة صائحاً: أتترك اللاتَ والْعزى أيها العبد الآبقُ؟! ونهمرُ السِّياطُ القاَسيةُ على جسد الفتى العارى فتسيلُ منه الدِّماءُ، لكن لسانَ بلال لا يكفُّ عن تَرْديد نشيدَهُ الخالد، أحَدُ. أحَدُ!! فيزدادُ أمية غُروراً وكبْراً. ويضعُ على صَدره العَارَى صَخْرةً كبيرةً. الرِّمالُ الساخنةُ تَشْوى جلدهُ الأسود، ولفحةُ الهجير تقتلهُ عَطَشاً، والصخرةُ القاسيةُ تدقُّ عظامهُ. عذابٌ لا يتحملهُ بَشرٌ، وَيأمرهُ أُميةُ أن يَسبَّ مُحمداً ويذكرَ الآلَهةَ.. فيردُّ بلالُ بصمود عنيد: أحَدٌ.. أحَدّ.

وتَميلُ الشمسُ إلى الغروب، ويرفعُ الجلادونَ الصَّخرةَ عن صَدر بلال، ويرجعونَ به إلى الدار لا تكادُ تحمَلهُ قدماهُ من الجوع والإعياء والعطش.

ويَشيعُ فى مكةَ إسلامُ بلال وتعذيبُ سيده له. ويرى أبو بكرُ الصِّديقُ بلالَ بن رباح طَريحَ الرِّمال السأخنة يتلقى التعذيبَ بصبر وجلَد فيصيحُ فى جلاديه: ما لكمُ.. أتقتلونَ رَجُلاً أن يقول ربى اللهُ؟!

فيصيحُ أميةَ بن خلف: وما شأنكَ أنتَ؟!.. إنهُ عبدى أفعلُ به ما أشاءُ.. أعْتقه إن شئْتَ. فما أفسدهُ إلا أنتَ وصاحبَكَ.

فيردُ أبو بكر: نعم.. أنا أشْتريه.

ويجدُ أميةُ فرصتهُ فى الخلاص من هذا العبد الآبق الذى أعياهم، وهَدَّ قُواهَم، فيوافق على بيعه. ويدفعُ فيه أبو بكرَ سبعَ أواق من الذَّهب. فيأخذها أُمَيةُ وهو ينظر إلى بلال ساخراً ويقول لأبى بكر

هَازئاً: خُذه. . فواللات والعُزَّى لو أبَيْت إلا شراءه بأُوقية واحدة لبعتهُ لكَ.

فيصيح أبو بكر بعزة: والله لو أبَيْتُم إلا مائة أوقية من الذهب لاشتريته.

ويتلقى أميةُ الصَّفعة خَاسِئاً، ويُطْلق زَفرةَ غضبٍ ثم ينصرفْ.

***

وينتشرُ الإسلامُ بين النَّاس، ويهاجرُ النبى والمسلمونَ إلى المدينة، ويأمر النبىُ ببناء مسجد. وكَانت الصلاةُ إذا حَضرتْ يُنادى منادى النبى: الصَّلاةُ جامعةُ.

جلس النبى ﷺ ذات يوم فى المسجد يتشاورُ مع أصحابه فى طريقة تُذكَر الناسَ بموعد الصلاة، وسيلة تذكر السَّاهر وتنبهُ الغافل حتىً يكون الاجتماعُ للصَلاة عاماً. فقال بَعضهمُ: نرفعُ رايةً ليراها الناسُ.

فقال النبىُ: ولكنها لا تُفيدُ القائمَ ولا الغافلَ.

وقال آخرون: نُشْعلُ ناراً، وأشارَ بعضهمُ بنفخ بوق، أو دَقِّ ناقوس، فكَرهَ النبىُّ ذلكَ كلَّه لأنها تُشبه ما يفعله المجوسُ أو اليهودُ أو النصارَى. وتفرقوا على غير رأى.

وبينما كان عبد الله بن زيد الأنصارى بين النَّوم واليقظة إذ بدا له رجلٌ وبيده ناقوسٌ فسأله: أتبيعُ الناقوسَ؟

قال الرجل: ماذا تُريدُ به؟

قال: أُريدُ أن أضربَ به للصلاة ليجتمعَ الناسُ.

قال الرجل: ألا أدلك على خيرٍ من ذلكَ. . كلمات تقولها عند النداء للصلاة.

قال : بَلَى .

قال : قُلْ : الله أكبر الله أكبر ، أشهدُ أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسولُ الله . حى على الصلاة . حى على الفلاح . الله أكبر الله أكبر . لا إله إلا الله .

واستيقظَ عبدُ الله وذهبَ إلى النبى يُخبرهُ برؤياهُ . فقال النبى : إنها لرؤيا حَقٌ . لَقِّنها بلالاً فإنه أَنْدَى منك صوتاً .

ويحينُ وقتُ الصلاة ، ويَقفُ بلالُ بن رباح على سقف المسجد ويرفع صوتَهُ لأول مرة بالآذان . . نداءٌ شجيٌ يترددُ فى أرجاء الكون ، فيسمعُه النَّاسُ ويأتون إلى المسجد .

ويخرجُ عمر بن الخطاب مُسْرِعاً ويقولُ للرسول : والله لقد رأيتُ مثله يا رسول الله . فيقولُ النبى : الحمد لله . إنها رؤيَا حقٌ .

***

ويحضرُ بلالُ الغزوات والمعاركَ مع رسول الله ، ويُلازمُ النبىَّ فى إقامته وسفره كأنه خادمٌ ، وما هو بخادمٍ ، وفى المسجد يرفعُ الآذانَ ويُقيمُ الصلاَةَ ، وفى السَّحَر يذهبَ إلى حُجرات النبى ويُنادى من الخارج : الصَّلاةُ يا رسول الله . فيقومُ النبى لصلاة الفَجر .

وتمضى الأيامُ ، ويتزوجُ بلالُ من امرأة بارَّة وَفية ، وكان يُحسنُ عِشْرتها ويُحبها . غير أن حبَّه لرسول الله كان طاغياً .

***

حَاصر النبىُّ حُصونَ خَيْبرٍ - أولئك اليهُود الذين نَقَضوا العهدَ

معه، وغَدروا بالمسلمين، وأعدَّ النبي خُطةً للهجوم بقيادة على بن أبى طالب لفتح الحصْن. واستطاعَ علىٌّ أنْ يقتل قائدَ جيش اليهود، ولما رأى اليهودُ مَصَرعَ قَائدهم ولوّا مُدْبرين، وتشتتوا فَزَعاً.

وعندما فتحَ المُسلمون حصْنَ العَمْوص جيءَ بصفيةَ بنت صاحب الحصن وفتاة صغيرةَ قريبة لهَا إلى الرَّسول، فَأرسلهما النبىُّ مع بلال إلى رَحْله حتَّى ينتهى القتالُ.

ويمرُّ بلالُ بالفتاتين على القتلى من قومهما، فتفزعُ الفتاةُ الصغيرةُ وتصيحُ صياحاً شديداً وتلطم وَجْهها. وعلم النبىُ بذلك فحزنَ وقال لبلال عاتباً: وَيحْك يا بلالُ! . . أنُزعتْ منكَ الرحمةُ. . أتمرُّ بجارية صغيرًة على القتلى؟!

فيعتذر بلال: يا رسولَ الله ما ظننت أنكَ تكرهُ ذلك، وأحببت أن ترى الفتاة مصارع قومها.

وأخيراً طلب اليهود الصُّلحَ، فوافقَ النبى ﷺ، وأمرهم بمغادرة البلاد لأنهم لا أمانَ لهم ولا عَهدَ لهم.

ويعودُ المسلمونَ بعد موقعة خيبر إلى وادى القُرى، ويضربون خيامهم للراحة. ووكل النبىُ إلىَ بلال أن يُوقظه لصلاة الصبح. وكان الحر يومها شديداً، فنامَ النبى والمسلمون حتى طلعتْ الشمسُ وغضبَ النبىُّ وقال هو يَمسحُ العَرقَ عن جبينه: لا حولَ ولا قُوةَ إلا بالله. . كانتُ أنفُسنا بيد الله، فلو شاءَ لقبضهاَ وكان أوْلَى بها! ثم التفتَ إلى بلال وهتفَ به: وَيْحَك يا بلال!

فبادرَ بلالُ مُعْتذراً وهو يقول: بأبى أنت وأمى يا رسولَ الله، قَبضَ

نفسى الذى قبض نفسكَ.

فتبسَّمَ النبى ﷺ وعفا عنه، ثم توضأ وصلَّى الصبحَ بالمسلمين.

***

عاشَ المسلمونَ بعد فتح حُصون خيبرَ فى أمان وسلام، وعندما حَانَ موعدُ ذهاب المسلمين لزيارة الكعبة، أمَّر النبىُّ المسلمين بالاستعداد للرحيل إلى مكة.

ودخلَ المُسلمون مكةَ، وطافوا بالكعبة وهُم يُرددون التكبيرَ والدَّعوات. وحَضرتْ الصلاةُ، فأمر النبى بلالاً أن يصعَد فوقَ الكعبة ويؤذن للصلاة.

وترددتْ فى الأرجاء كلماتُ الآذان: الله أكبر الله أكبر، واصطفَّ المُسلمونَ فى الصلاة خلفَ النبى، ووقَفَ المُشركون يفركونَ أعينهم وينظرونَ فى دَهْشةٍ وذُهولٍ إلى هذا النظام، وهذا الجَلالَ.

وتهامسَ بعضهم: انظروا.. أليسَ هذا بلالُ العبد الحبشى الذى كان يُعذبهُ سيدهُ فى بطحاء مكة؟!.. إنه اليوم يرفعُ نداءَ الإسلامِ من فوق الكعبة!

وقال آخر متحسراً: إنه الدِّينُ الجديد يا صاحبى الذى جَعلَ من بعض العبيد سَادةً، هذا الحَبَشىُّ الأسودَ لم يكن قبل الإسلام أكثرَ من عبدٍ رقيقٍ يَرعى إبلَ سيدهُ على حفنَات من التَّمر.

وقال رجلٌ ثالثٌ وقد أكلتْ الحسرةُ قَلبَهُ: لولا الإسلامُ لبقى بلالُ تائهاً فى أعماقِ النِّسيان والهَوان. إن الإسلامَ بدَّل أحوالَ أصحابه.

مَرَّتْ أيامٌ ثلاثةٌ، والمسلمونَ يُؤدونَ مناسكهم في هُدوء، ويُعاملون أهلَ مكة بأخلاق سامية، وبين حين وآخرَ يتردد الآذانُ في الأرجاء بصوت بلال بن رَباحٍ. ويَعودُ مَوْكبُ المسلمين إلى المدينة.

وينتشرُ الإسلامُ في مكةَ والمدينة وبلادِ العرب. وتصبحُ دولةُ الإسلام كبيرةً وقويةً.

وفي السنة الحادية عشرة بعد الهجرة، يمرضُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وتَصعد روحُهُ الطاهرةُ إلى بارئها راضيةً مَرضيةً. ويبكي بلالٌ على فراق النبي بُكاءً شديداً، ويدورُ حَولَ قبره وهو يحملُ قربةً، يبلُ ذلك الثَّرى الطاهرَ بالماء وفاءاً وحُباً.

ويحينُ وقتُ الصلاة فيصعدُ بلالُ المسجدَ ليرفع الآذانَ كعادته، وعندما يُرددُ: أشهد أن مُحمداً رسولُ الله، يَجْهشُ بالبكاء، ويَجهْشُ الصحابةُ كلهم بالبكاء.

وذاتَ يوم يذهبُ بلال بن رباح إلى أبي بكر الصديق خليفةُ رسولُ الله يَسْتأذنهُ في الخروج للجهاد في سبيلِ الله في الشَّام مع جيش المُسلمين. فيسألهُ أبو بكرَ: ومن يُؤَذن لنا؟

فيردُ بلالُ: إنني لا أستطيعُ أن أرفعَ الآذانَ بعد موت رسول الله.

فيقول أبو بكر: ابْقَ معنا في المدينة وأذن لنا يا بلالُ، فقد اعتدنا سماع الآذان بصوتك.

بلال: إن كنتَ أعتقتني لنفسكَ فاحبسني، وإن كُنتَ أعتقتني لله، فدعني أذهبُ لله عز وجل.

فيقول أبو بكر بدهشة: بل أعتقتكَ لله يا بلال!.

ويسافر بلالٌ للجهاد في سبيل الله.

وتمرُّ سنواتٌ طويلةٌ، ويَتمُ فتح دمشقَ في خلافة عُمر بن الخطاب. ويحينُ وقت الصَّلاة، ويصعدُ بلالُ مرتفعاً من الأرض ليرفع الآذانَ بصوته الشَّجيِّ.. الله أكبر.. الله أكبر ويُصغي المسلمون إلى الصوت الذي طَالَ انقطاعُه، وإذا بالأنفاسِ تَضْطربُ في وَجْد، والأعينُ تتلفتُ حولها في دهشة.

إن هذا الصوتَ يُذكرهم بحضورِ النَّبي. ولكن أين هو الآن النبي صلى الله عليه وسلم؟!..

وتنهمرُ دمُوع عمر بن الخطاب ويبكي الصحابةُ حنيناً وشَوْقاً.

ويسكنُ بلالُ بن رباح في ضَيْعة صغيرة بجوار دمشق كان يزرعها بنفسه ويعيشُ من غَلَّتها، ويَهزُه الحَنينُ إلى حبيبه النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ويشتدُ مرضُهُ وهو في نحو السَّبعين وتسهَرُ زوجتهُ على راحته وعلاجه، وتصيحُ ساعةَ الاحتضارَ، واحُزْناهُ!

فيُجيبها قبل أن تَصْعدَ رَوحهُ إلى ربِّها: بَلْ وافرحتاهُ.. غداً نَلْقى الأحبةَ، مُحمداً وصَحْبُه.

(ومات بلالُ بن رباح في دمشق، ودُفنَ عند الباب الصغير هُناك.. رضى الله عنه).

تمت بحمد الله

أبو ذرّ الغفارى

كَانتْ قَبيلةُ «غفار» تَسكنُ الصَّحراءَ وتَعيشُ على رَعىْ الغَنم والإبل، حَيثُ المَراعَى حَوْلَهمُ خصبةٌ، والأعشابُ على مَدِّ البَصر وفيرةٌ، وفجأةً انقطعَ عَنهمُ المطَرُ، وأصَابَهم قَحطٌ شَديدٌ، فهلكَ الزَرْعَ وجَفَّ العُشبُ وكَادَتْ الأنعامُ تهلْكُ.

وظَنَّ أفرادُ القَبيلة أن رَبَّهم قَد غَضبَ عليهم، وكَانُوا يَعبدون صَنَماً يُسمى «مُناة» فَلجأوَا إلى هَذا الوَثن يطلبونَ منه الغَوْثَ. ولكن لا غَوْثَ! فَالصنمُ المصنوعُ من الطَّمى تَشقَّق من شده الجفَاف وقسوة الصَّحراء وتَساقطَ على الأرض جُذَاذاً.

ويأس القَومُ من نُزول الغَيْث. ومن هذا الإله الذى لا يَضرُّ ولا يَنْفعُ، والذى تَحطَّم أمَامهم عَاجزاً.

وخَرجَ بعضُ أفراد العَشيرة على رَواحلهم إلى سُوق مكةَ يَشْترونَ ما يَحتاجونَ إليه من طَعَام وكسَاء.

كانَ أبو ذرّ (جُنْدب بنُ جُنادةَ) يَتحدثُ مع أخيه أُنَيْس أمامَ الدَّار عندما مرَّ بهم أعرابِّى قَادمُ من مكةَ يحمل بضاعةً على ناقته. فَسألهُ أبو ذرّ:

- ما أخبارُ مكةَ يا صاحبى؟

قال الأعرابى: ظَهر فى مكةَ رجلٌ يَدَّعى أنهُ رسولُ الله وأنهُ يأتيه الخَبرُ من السَّماء.

أبو ذرّ: وهَل آمنَ به أحَدٌ؟

الأعـــرابىُّ: نـعـم . . آمنَ بـه بعضُ النَّاسِ، لـكـن قُـريش تناصِــبــهُ العداءَ.

التفتَ أبو ذر إلى أخيه أُنَيْس وقال: امَضِ إلى مكةَ يا أخى وعُدْ لنا بالخَبرِ اليَقينِ عن هذا الرجلِ الذى يَزْعُم أنه نبىٌّ.

وانطلقَ أُنَيْس إلى مكةَ، واستـمعَ إلى كلام النبَّى صلى الله عليـه وسلم، وجَلَس أَبو ذَرٍّ الغفـارى على مَشـارف القَـريةِ ينتظرُ أخـاهُ فى شَوْق شَديد، وبعد أيامٍ عاد أُنَيْس مُستْبشراً.

فسألهُ أبو ذَرّ: ماذا رأيتَ وسَمعتَ فى مكةَ؟

قال أُنَيْسٍ: رأيتُ الرَّجلَ يأمرُ بمكارمِ الأخلاقِ ويقولُ كلاماً ما هو بالشِّعرِ.

أبو ذرّ: ثُمَّ ماذا؟!

أُنيس: ويَشهدُ أنه لا إله إلا الله، وأنه عبدُ الله ورسوله.

صـــاحَ أبو ذرّ: يبـــدو يا أخـى أن الرَّجـلَ على حَق، ولـكنك مــا شفتينى مما أردتُ، سأمضى بنفسى إلى مكةَ لأسمعُ وأرَى.

***

تَردَّدَ أبو ذر الغفارى باليسيـر من الطَّعـام والماء وانطلقَ إلى مكةَ ماشياً، واتخذ لنفَسه مكاناً بجوار الكعبة يُصْغَى إلى أحاديث القَومِ، ويتلفَّتُ حَوْله باَحثاً عَن صاحب الدَّعوة الجَديده.

وعندما جاءَ المساءُ، افترشَ ثوبهُ واضْطجع مكانه.

وفى هذه السَّاعة مرَّ علىٌّ بن أبى طالب فرأى الرجلَ فعرف أنه غريبٌ فسألهُ: كأن الرَجلَ غريبٌ؟

قال أبو ذَرّ: نعم.

فدعاهُ علىٌّ بن أبى طالب إلى منزله، وبَاتَ علىٌّ لا يسألُ صَاحبهُ عن شَئٍ. وفى الصَّباح انطلقَ أبو ذَرّ إلىَ أسواق مكةَ يستمعُ إلى كلام القَوم، وهو يَخْشىَ أن يَسألَ عن صاحبِ الدَّينَ الجديد حتى لا يناله أحَدٌ بأذىً.

وجَاء المساءُ، فعادَ الغريبُ إلى مَضجْعه بجوار الكَعبة.

ومرَّ به علىٌّ بن أبى طالب فرآهُ على حاله التى كان فيها بالأمس. فظنَّ أن هذا الرجلَ لم يَعْثرُ بعَدُ على ضالته. فدعاهُ إلى المبيت عندهُ، ولم يسألهُ أيضاً عن شَئٍ.

وفى الصَّباح غادرَ أبو ذر الغفارى الدارَ إلى أحياء مكةَ وسُوقها يُصغى إلى ما يقولهُ النَّاسُ عنَ الدين الجَديد، وانقضى النَّارُ وذَهبَ إلى مكانه بجوار الكعبة. وقَبْلَ أن يتهيأ للنوَمِ مرَّ به علىٌّ بن أبى طالب ودعَاهُ للمبيت فى دارهَ.

وفى الدَّارَ سألهُ علىٌّ: أيها الغَريبُ.. رأيتُكَ هُنا لا تَبيعُ ولا تَشْترى.. ألاَ تُحدثنى ما الذى جَاءَ بكَ إلى مكةَ؟ أخبرنى عَمَّ تبحثُ؟

قال أبو ذَرّ وقد اطمأن قَلْبهُ لصاحبه:

- أنا جُنْدبُ بن جُنَادةَ من قبيلة غفار، وكُنْيتى «أبُو ذَرّ»، سَمعتُ عن رَجُلٍ بمكةَ يدعو إلى دينٍ جَديدَ وأنهُ يأتيه الخَبرُ من السَّماء. وقد

أتيتُ لأعرفَ الحقيقةَ.

سُرَّ عليٌّ بن أبى طالب من كلام الرجل وقالَ:

- يا صاحبى إن محمداً رسولُ الله حقاً، أرسلُه اللهَ لهداية النَّاسِ وعبادة الله وحدهُ وتَرْك عبادة الأصْنامِ.

قالَ أبو ذَرّ: وكيفَ ألْتقى به؟

قال علىٌّ: سَنذهبُ إليه خُفْيةً، لأنى أخْشى عليكَ كُفَّارَ قُريش، فإذا أصبحنا فاتْبعنى فى الطريق وأنا أحملُ قربةً، فإذا رأيتُ شَيْئاً أخافُ عليكَ منه تظاهرتُ بأننى أُريقُ الماءَ، وإن مضيتُ فاتْبعنى حتى نَدخلَ معاً على رسُول الله.

وانطلقَ علىٌّ وأبو ذَرّ حتى دَخلا على النَّبى، فقال أبو ذر:

- السَّلامُ عليكَ يا رسولَ الله.

قال النبى: وعليكَ السَّلامُ.. من أنتَ؟

- رَجُلٌ من غفار.

- ومتى كُنتَ هُنا؟

- كُنتُ هُنا منذْ ثَلاث.

- فمن كان يُطعْمكَ؟

- كان طعَامى ماءُ زمزْم.

فقال النبى: إنها مباركةٌ.. إنها طَعامُ طُعْمٍ.

وعَرض النبىُ الإسلامَ على أبى ذرٍّ الغفارى فأسلَم.

فقال له النَّبىُ: ارجعْ إلى قَومكَ فأخبرهُم عن الإسلامِ واكتْم أمْركَ عن أهلِ مكةَ فإنى أخْشاهُم عَليكَ.

قال أبو ذَرّ: والذَّى نفسى بيده لأصْرُخنَّ بها بَينْ ظَهرانيهم.

وخرجَ أبو ذَرّ حتى أتى الكعبةَ فنادى بأعلى صوته: يا مَعْشرَ قُريشٍ إنى أشهد أن لا إلَه إلا الله، وأن محمداً رسُول الله.

فقامَ إليه القومُ يضربونهُ ضَرْباً مُوجعاً حتى طَرحُوه أرْضاً وسَالتْ منه الدماءُ. فصاحَ فيهمُ العبَّاسُ عَمُّ النَّبى، ودفعَ الناسَ عنه. فتركوهُ، ثم مَضى إلى بئْر زمزمَ يغسلُ وَجْههْ من أثر الدِّماء. وتوجَّه بعدها إلى بيت النَّبى، فلما رآهُ النبى قال: ألم أنْصحَكَ أن تُخْفى الآنَ إسلامكَ عن قُريشَ؟

قال أبو ذَرّ: لم أعُدْ أخْشىَ يا رسول الله قُريشاً أو غَيرها.

وفى اليومِ التالى انطلقَ أبو ذَرّ الغفارى إلى الكعبةَ وصاحَ بأعلى صَوته:

- يا مَعْشرَ قُريشٍ، إنى أشْهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأن مُحمداً رسولُ الله.

فقامَ أشرافُ قريش إليه وهُم يقولون: هَذا الفَتى يتحدانا ويَغيظنا. وأوسَعُوه ضرباً حتى سَالتْ منه الدَّماءُ.

وهُنا مرَّ به العَباسُ عمُّ النبى فدفعَ النَّاسَ عنه قائلاً: وَيْلكمُ ألا تَعْلمون أنه من قبيلة غفار وأن طريقَ تجارتكمُ إلى الشَّام يَمرُّ عليهم؟!

وانتظرَ أبو ذَرّ فى مكةَ أياماً تعلَّم فيها أُصولَ الدِّين وحَفظَ بعض

آيات القُرآن، ثُمَّ خرجَ من مكةَ إلىٰ قبيلة غفار.

فسأله أخوه أُنيس: ماذا صَنعتَ في مكةَ؟

قال: أسلمتُ وصَدَّقتُ.

فأسلمَ أخوهُ أُنيس، وأسلمتْ أمُّهُ. وذَهبَ أبو ذر الغفاري إلى سَيد القبيلةَ حيثُ يجتَمعُ عنده القومُ وحدَّثهم عن رِحلته في مكةَ، وأخبرهُم انه التقى بالنَّبي وأسلَمَ.

فصاحَ القومُ: صَبَأتَ؟

فقالَ: بلَ هَداني اللهُ إلى دينه.

قالوا: وآلهتُنا؟.. ودينُنا الذي وَجَدنا عليه آباءنا؟!

فقال: إنها أصنامٌ لا تضرُ ولا تنفعُ، أتذكرونَ يا قومُ أيامَ الجفاف والقَحْط، ألم نَضْرع إلى الألهة ونُقدم لها الذبائح والقَرابينَ، هلَ كَشفتْ عَنا الجفَاف وأنزلتْ المطرَ؟!.. كَلا.. بل إنها تَصَّدعتْ من قَسوة الحَرِّ.

وتركهم أبو ذرٍ في تفكير وحَيرة، فأسلَم سَيدُ القبيلة «خُفاف بن رحضةَ» ثم تبعهُ كثيرٌ من القومِ، حتىً أسلمتْ قبيلةُ غفار كُلُّها.

***

انتشر الإسلامُ في المدينة، وانتصرَ النَّبيُ على المُشركينَ يومَ بَدْر، ووقعتْ بعدها غزواتُ أُحُد والخَندقُ، وكان أبو ذَرّ لا يَزالُ في غفار.

وذاتَ يومٍ قرَّر أبو ذرٍ الإنطلاقَ إلى المدينة لمؤازرة النبي ونُصرة

الإسلام. فودَّع أخاهُ أُنيس ومضى مُهاجراً إلى الله ورسوله.

كانَ أبو ذر الغفارى مُلازماً للنَّبى بالنهار يَخدمهُ ويتعلَّمُ منه، وفى المساء يَبيتُ فى المَسجد مع فُقراء المُسلمين.

خرجَ أبو ذَر مع النبى فى الشتاء وكان الوَرقُ يتساقطُ مع الأشجار. أمسكَ النَّبىُ غُصْناً من شجرةَ ورَاحَ يتأملهُ والوَرقُ يتساقطُ منه ثُمَّ التفتَ إلى أبى ذَرّ وقال: يا أبا ذَرّ.

قال أبو ذَرّ: لَبيكَ يا رسُولَ الله!

قال النبىُّ: إن العَبْد ليُصلى الصَّلاةَ يُريدُ بها وجهَ الله فتَساقطُ عنه ذُنوبُه كما يَتساقطُ هذا الوَرقُ عن هذه الشَّجرة.

***

ويخرجُ رسولُ الله والمسلمونَ لمُحاربة الرومُ، ويَسيرُ الجَيشُ فى طريقه إلى تَبُوك، ويعجزُ بَعيرُ أبى ذرّ عن مُسايرة الرَّكب، فينزلُ أبو ذَرّ عن بَعيرهُ الأعجَف، يَحملُ متاعَهُ على ظَهْره ويَسيرُ فى أثر الجَيش. ويُعسكرُ جَيشُ المُسلمينَ فى تَبُوك، وينظرُ النبىُّ حَولهُ فلا يرى أبا ذَرّ. فيسألُ أصحابُه: أينَ أبو ذر الغفارى؟

فيقولُ النَّاسُ: تَخلَّفَ أبو ذر يا رسولَ الله!

فيقول النبىُ: دَعُوه فإنْ يَكُ فيه خيرٌ فسيلحقهُ الله بكم، وإن يكنْ فيه غيرُ ذلكَ فقدَ أراحكمُ اللهَ منهُ.

وبينما المُسلمونَ يَدُقُّونَ خيامهم، ينظرُ أحدهُم فى الصَّحراء فيرى من بعيدٍ رَجُلاً فيقولُ: يا رسولَ الله.. إنى أرى رَجُلاً يمشى على

الطريق وَحْدهُ.

فيقولُ النبيُ: لعلهُ أبو ذرٍّ.

فلما اقتربَ الرجلَ تأمله القومُ وصاحوا بفرحةٍ: يا رسولَ الله، إنه والله أبو ذر الغفارى.

فيقولُ النبى: رَحمَ الله أبا ذرٍ، يَمْشى وحدهُ، ويَموتُ وحَدهُ، ويُبعث وَحْدهُ.

ويصلُ أبو ذر إلى رسول الله وقد أجْهدُه المَسيّرُ، وأنهكهُ الجُوعُ والتَّعبُ. فيلقاهُ النَّبىُ مُبْتسماً ويقولُ: «لقد غَفر اللهُ لكَ يا أبا ذَرٍ بكل خُطَوة ذَنَباً إلى أن لَقيتنى».

ويَفرُّ جَيشُ الرُّوم عندما علمَ بمجئ جَيْش المُسلمين، ويعودُ النَّبى بالجَيش إلى المدينةِ وقدَ كَفَاهُم اللهُ القتالَ.

***

يَخرجُ النَّبىُ صلى اللهْ عليه وسلم ذات يوم إلى السُّوق ومعهُ أبو ذَرّ الغفارى، وفى الطَّريق يقولُ النبىُ لِصاحبِه: يَا أبا ذَرّ إنكَ رَجلُ صالحُ وسيصيبكَ بلاءٌ بعدى.

فيقولَ أبو ذَرّ: فى الله؟

فيقولُ النبى: فى الله.

فيقولُ أبو ذَرّ دُون مُبالاة: مَرْحباً بأمر الله.

ويكونُ أبو ذرٍ بعيداً عن المدينةِ عندما يصلُه نبأُ وفاةِ النَّبى صلى الله

عليه وسلم، فيغشَاهُ حُزنٌ عَميقٌ وهَمٌّ كبيرٌ، وتَتحدَّرُ دموعُهُ وهو يرُدَّد: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعُونَ، كُلُّ شَيءٍ هَالكُ إلا وجَههُ، تَركَنَا رَسُولُ الله وما يُحركُ طَائرٌ بجناحيه فى السَّمَاء إلا ذُكرَ لنا منهُ علماً.

ويَحملُ أبو ذرٍّ سَيْفَهُ ويخرجُ مع جَيْشِ خالد بن الوَليد لمُحاربة مُسَيلمةُ الكَذَّاب، ثُمَّ يتَزوجُ. وبَعْدَ فَتْرة تَلدُ زوجَتُهُ بنتاً فيرحَلُ بأهلهَ إلى الشَّام مُجاهداً فى سبيلِ الله.

وينتقلُ أبو بكر الصِّديق إلى جوار ربِّه، وتَؤُول الخلافةَ إلى عُمر بن الخطاب، فيلحقُهُ بالديوان فى الشَّامَ، ويَعيشُ أبو ذرٍّ هُناكَ زاهداً قَانعاً باليسير من الطَّعام والشَّراب والثِّياب.

ويلتفُ النَّاسُ حوله فى المَسجد يتعلمون منه، وأثناءَ حديثه إليهم يدخلُ رسولُ من أمير الشام ويقولُ: قد بَعثنى مَوْلاى إليكَ بثلاثَ مائة دينار لتستعينَ بها علىَ حَاجتكَ.

فيقولُ أبو ذر: عُدْ بها إليه وقُلْ له: لا حَاجَة لنا بها. فما لَنا إلا ظلٌّ نتوارى به، وبعضُ الغنَم نأكلُ منها، وزوجةٌ صابرةٌ تصدقتْ علَينا بخدمتها.

***

ظَلَّ أبو ذَرٍّ بالشَّام حتى بلغَهُ نبأُ طعن أميرُ المؤمنين عُمر بخنجر بينما هُو يُصلى الصُبحَ، وعندما رَجعَ إلى المَدينة رأى عثمان بن عفانَ أميرَ المؤمنين يُولِّى أبناءَ عمه وأقاربهُ المناصبَ، ورأى مَظاهرَ المُلك والتَّرف والمُبالغة فى إنفاقِ الأَموال، فاستولى عليه الأسَى والأسفُ، وراحَ

يرفعَ صوتَهُ في المسجد مُردِّداً ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة : ٣٤] .

والتفَّ النَّاسُ من حَوله، فاستدعاهُ عُثمان بن عفان وسألهُ :

- ما هَذا الذي بلغَني عنك يا أبا ذرٍّ؟

- وما بلغَكَ عني يا أميرَ المؤمنين؟

- سَمعتُ أنَّكَ تُحرض النَّاسَ عليّ!

- كَيفَ ذلكَ؟!

- أنكَ لا قرأ في المسجد إلا : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ ... وَالْفِضَّةَ﴾ [التوبة : ٣٤] .

- أو في هَذا تحريضٌ على أمير المؤمنين ، أمْ أن أمير المؤمنين لأمر ما يُريدُ أن يَمْنعني من قراءة كتاب الله . اعلمْ يا أميرَ المؤمنين أنَّني مُثابرٌ على قراءة كتاب اللهَ وتَعلَيم المُسلمينَ حتى وإن أسْخَط هَذا أميرَ المؤمنين!

صاحَ عُثمان : أُخْرُجْ . أُخْرُج إلى الشَّام .

وخَرجَ أبو ذَرٍّ إلى الشَّام، وهُناكَ كَانَ مُعاويُة بن أبي سُفيانَ والياً على الشَّام، وكان يتصرَّفُ كأنه ملَكَ الأرضَ والمالَ والنَّاسَ .

والتفَّ الفُقراءُ حَول أبي ذَرٍّ الغفاري وقَويتْ عَزائمهم . وخَشيَ مُعاويةُ من ثورة الفُقراء، فأرادَ أن يَمنحَ أبا ذَرٍّ مالاً وأرْضاً لعلَّه يمتنعُ عن دَعوته وترديد الآية القُرآنية ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ ... وَالْفِضَّةَ﴾ [التوبة : ٣٤] .

لكن أبا ذَرٍّ رفضَ العَرْضَ، فكتبَ مُعاويةُ إلى أمير المُؤمنينَ عُثمان:

- أنْقذنى من أبى ذَرٍّ.

فردَّ عليه عُثمان بن عفان: أرسِلْ أبا ذر إلىَّ.

فعادَ أبو ذَرٍّ الغفارى إلى المدينة فى حراسة مُشدَّدة، وعندما أُدخلَ على عُثمان بن عَفَان قالَ: مَرْحباً وأهلاً بأخى.

فقالَ أبو ذرٍّ: مَرحْباً وأهلاً يا أخى.

قالَ عُثمان: ما لأهلَ الشَّام يَشْكُون لسانكَ؟

قالَ أبو ذرَّ: لقد كَنزَ النَّاسُ المَالَ فبشرتهُم بمكاو من نار.

عُثمان: كَذبتَ.. ولكنَّكَ تُريدُ الفتنةَ وُحبها، لقدَ قَلَّبتَ الشَّامَ عَلينا. ثُمَّ التفتَ لمن حَوْلَهُ وقال:

- أشيرُوا علَّى.. هذا الشَّيخُ يُريدُ أن يُفرقَ جَماعَة المُسلمينَ، إما أن أحْرقهُ، أو أقْتلهُ، أو أنْفيهُ من أرض الإسلامِ.

سكتَ عُثمانُ بن عفان لَحظةً ثم قالَ: أخْتَر المكانَ الذى تَذْهبُ إليه.

فاختارَ أبو ذَرٍّ مكةَ، فرفضَ عُثمانُ. فاختار الشَّامَ، فرفضهَ، فاختارَ العراقَ، فرفضَ أيضاً. فقالَ أبو ذرٍّ:

- لا أُريدُ غيرَ هذه البلدان وإلاَّ فابعدنى إلى حَيثُ تَشاءُ.

فقالَ عثمانُ: إنى مُسَيِّرك إلى الرَّبَذة (مكانٌ يبعدْ عن المدينة) وفى مَنْفى الرَّبذة وَسْطَ الصَّحراء الخالية، وتَحْتَ خيمة مُمزقة عَاشَ أبو ذرٍّ أيامَهُ الأخيرة هو وزوجتُهَ وابنهُ وابنتهُ، لم يكنْ يملكُ فى هذا القَفْرِ

سوى غُنيمات قليلة يَرعْى بها فى النَّهار، وكان لَبنها هو زَادُ العائلة، اضافةً إلى ما يَنْبتُ فوقَ الكُثبان من أعْشَابٍ، وبئر مَاءٍ. ويَشْتَدُّ بأبى ذَرٍ المرضُ. وتبكى زوجُته، فيسألُها:

– ما يُبكيْك؟

فتقولُ: ألا أبكى وأنتَ تموتُ فى هذه الصَّحراءَ غَريباً وَحيداً، ولا يُوجدُ من يقومُ بدفنكَ أو يُصلى عليكَ.

فيقول أبو ذر: أبشرى فإن خليلى عليه الصلاةُ والسَّلامُ وَعَدنى أن يَشهدَ مَوْتى جماعَة من المؤُمنين، فأبصرى الطَّريقَ.

وترى الزوجةُ رَكْباً قادماً، فتُشيرُ إليهم، وكانَ بينهم عبدُ الله بن مسعود.

وتَصْعُد روحُ أبى ذر الغفارى إلى بَارئها وعلى شفتيه بَسْمةٌ إيمان ورضىً، ويكفنهُ أحَدُ الأنْصَارِ، ويُصلى عليه عبد اللهُ بن مسعودٍ. ويودعهُ صَديقهُ وهو يُرددُ:

– صَدَق رسولُ الله.. يَمشى وَحْدهُ، ويَموتُ وَحدهُ، ويُبعثُ وَحَدُه.

تمت بحمد الله تعالى

«عبد الرحمن بن صخر»
أبو هريرة

كَانَ عبدُ الرحمن بنُ صَخْر راعياً للغَنم، وكان فَقيراً يَتيماً يَصْحُو من نومه مع بُزوغ الفَجر، ويَسْرَحُ بغنمه فى البَادية.

وفى شعَاب تُهامة[1] كان يَقْضى يَومهُ؛ حيثُ يَتفقدُ أماكنَ العُشْب ومَواضعَ القَطْر، يُطعمُ أغنَامهُ ويَسقيها ويَجزُ صُوفها ويَحلبُ لَبنها، ثمَّ يعودُ آخرَ النَّهارَ إلى أُمه مكْدوداً مُتْعباً يَحْملُ لها وعاداً به لَبن.

وذاتَ مساء كان الشَّابُ «عبد الرحمن» عَائداً من عَمله عندما التقى به «الطُّفيلَ بن عَمرو الدُّوسىِّ» فى الطريق. فَحيا كلاهما الآخرُ، ودعاهُ الطفيلُ لزيارته.

كان الطفيلُ بن عمرو رجلاً شَريفاً شَاعراً مضْيافاً، وكان عَائداً لتوه من رحلة إلى مكةَ لزيارة الكعبَة، جلسَ الرَّجلاَن فى دَار الطُّفيلَ.

قال الطفيلُ: ذَهبتُ إلى مكةَ، ونزلتُ قُربَ الكَعبة فإذا برِجال من قُريش يُحذرونني من رَجُلٍ يُدعى «مُحمدُ».

قال عبد الرحمن: وماذا أخبروكَ عن هَذا الرَّجل؟

الطفيل: قالوا لى هَذَا رجلٌ فَرَّقَ جَماعتنا وشَتَّتَ أمْرنا وإنما قَولُه كالسِّحر يُفرق بين الرَّجل وأبيه، وبين المَرءْ وزَوْجه. وأرادوا بذلكَ مَنْعى عن لقاء هذا الرُّجل.

---

(١) تهامة: السهل الساحلى المحاذى للبحر الأحمر من ناحية اليمن.

عبد الرحمن : وهَلْ صَدَّقتهم؟

الطفيل : نعم . . صَدَّقتهم وعَزمتُ على ألا أستمعَ لهذا الرجل الذى يُدعى «مُحمدٌ» حتى لا أُؤخذ بسحره - كما يزعمون، لكنَّ ما حدثَ كان عَجيباً!

عبد الرحمن : وماذا حَدَثَ؟!

الطفيل : ذَهبتُ ذاتَ يوم إلى الكَعبة، فرأيتُ هذا الرَّجلَ يُصلى وعليه جَلالٌ وَوقارٌ، فأُعجبتُ بهيئته وبصَلاته، واستمتعتُ إليه . . فحدَّثنى عن الإسلام، ذلكَ الدِّين الذى يَدعُو إلى المُساواة والعدل ومكارم الأخلاق. ويدعُو إلى عبادة الله وَحْده، وتَرْكَ عبادةَ الأصنام.

وعندما سألتُ بعضهم عن «مُحمد»، أخبرونى أنهُ صَادقٌ أمينٌ. فأدركتُ أن قُرَيْشاً تُحارب محمداً خَشيةً انتشار دَعْوته.

وعَلمَ النبى أننى من قبيلة دَوْس فى تُهامة، ودَعانى إلى الإسلام. فآمنتُ بدعوته وأسْلمتُ. وسألتُ النبى: ماذا أفعلُ؟

فقال النبىُّ: أُخرجْ إلى قَومكَ فَادعهم وارْفُق بهم

فقلت: يا رسولَ الله أخْشَى ألا يُصدقنى منهم أحدٌ. . ادعُ الله لى.

فقال النبى: اللهُمَّ اهْدِ دَوْساً وائْت بها.

انْشرحَ صدرُ «عبد الرحمن» لكلام الطُّفيل، واستمعَ إلى آيات من القرآن ـ حفظها الطُّفيل عن رسول الله، فأعجبتهُ وتمنَّى أن يَلْقى النبَّى،

وأن يَنْهل من فيضِ حكمته وعلْمه. وأسَلَم عبدُ الرحمن بن صخر.

استمر الطُّفيل فى دعوة عَشيرته إلى الإسلام صابراً عليهم، حتى استجاب له سَبْعُون بَيْتاً من أَهلِ اليمن.

أثناءَ ذَلكَ، كان النَّبىُ قد هَاجَر إلى المدينة ووقعتْ غزواتُ بَدْر وأُحُد والخندَق. وأعدَّ المُسلمون فى اليَمن أنْفَسهمْ للهجرةِ إلى النبىِّ صلىَّ الله عليه وسلم تاركين أهَلْهم وديارهم.

ويَدخلُ المَوكْبُ على رسول الله مُهللين مُكبرين. ويَجلسونَ بين يَديه يُبَايعونه. ويَجْلسُ عبد الرحمن بن صخرٍ إلى النَّبى ويقولُ له:

- يا رسولَ الله إن أُمى سَيدةٌ عَنيدةٌ، وقد دَعوتُها إلى الإسلامِ فلمْ تَستْجب وبَقيتْ على الشِّرك. واننى حَزينٌ لأجلها.

فقال النبىُ: أُرْفق بها، وأصبر عليها.

واتْخذَ عبد الرحمن بن صَخْر «الصُّفَة» مكاناً له لما كان عليه من فَقْرٍ. وكان بَاَرّاً بأمه. وكانَ يُلازمُ النَّبى لينهلَ من علْمه.

وذاتَ يَوْم كان عبد الرحمن بن صخر فى طَريقه إلى المسجد فوجد قطةً صَغيرةً تمَوء مُواءً حَزيناً، فأشفقَ عليها وقال فىَ نفسه: ربمَا تكونُ جائعةً مثلى، أو فقدتْ أُمها!

وحَملَ عبد الرحمن القطةَ ووضعها فى كُمِّه، ودَخلَ المسجدَ. ورآهُ النبىُّ يحملُ الهرَّةَ الصَّغيرةَ، فسألهُ: ما هذا يا عبدَ الرحمن؟

قال: وجدتُ هذه الهَرَّةَ يا رسول الله تشكو الجُوعَ، فأخذتها لأُطعمها وأسقيها.

ضحكَ النبيُّ وقال مازحاً: يرحمكَ اللهُ.. أنْتَ أبُو هريرة!

شَعرَ عبد الرحمن بسعادة. وجَلسَ بين الصَّحابة يُصْغى إلى ما يقولُه النبيُّ، ويَختزنُ فى ذاكرته كُل كلمة.

وأصبحتْ الهِرَّةُ تُلازمُ عبدَ الرحمنِ بن صخرٍ «أبو هرَيرةُ» فى كلِ مكانٍ.

***

وذاتَ يوم دخل رَجلٌ على النبى «وأبو هريرة» معه وسأله: يا رسول الله مَنْ من الناس أحقُّ بُحسْنِ صَحابتى؟

قال النبى: أُمكَ.

فقال الرجل: ثم أىْ؟

فقال النبى: أُمُّكَ.

فقال الرجل: ثم أىْ؟

قال النبى: أُمك.

قال الرجل: ثم أىْ؟

قال: أبوكَ.

عادَ أبو هريرة إلى داره، وراحَ يُطعمُ أمه ويرعاها.

وباتَ يدعو الله أن يَشْرح صَدرْها للإسلام. وفى الصَّباحِ قَدَّمَ لها الطعامَ وهو يُحدثها عن عَظْمة الإسلامِ وعن خُلقِ الرسول وحِكمته،

وعن مُتْعة النَّظر إلى رسول الله، ولَذَّةَ الإصغاء إلى حُلْو كَلامه. ويقولُ: واللَه يا أَمى لو رأيتَ النبى واستمعتَى إلى حديثِه لأَدركتِ كَمْ هى نِعْمةُ الإسلام!

وهُنا ثَارتْ الأُم وألَقْت الطَّعامَ غَاضبةً، وأسْمعتْ ابنها فى الرَّسولِ ما يكرهُ.

وكَتَم أبو هريرة غَيظهُ، وتركها باكياً حَزيناً، وأسْرعَ إلى مسجد الرسُّول. ورآهُ النبى فسأله: ما لَى أراكَ يا أبا هريرة ضَائقاً مَهمْوماً؟!

قال أبو هريرة: يا رسولَ الله كُنتُ أدعو أُمى إلى الإسلام وكَانتْ كعادتها تَرفضُ، وعندما دعوتُها اليومَ ثارتْ وغَضبتَ وشَتمتكَ فادعُ الله أن يَهدى أُمى للإسلام.

فرفعَ النبى يديه إلى السَّماء وقال: اللهمَ اهْدِ أم أبَّى هريرة إلى الإسلام.

وخرجَ أبو هريرة مُسْرعاً ليُبشر أمه بدعاء النَّبى لها، وعندما وصلَ إلى باب الدار، سَمعَ خضخضةَ الماء، وقبلَ أن يَدْفعَ البابَ ليُدخل سَمِعَ أُمهُ تنادى: مكَانكَ يا أبا هريرة!

فوقفَ أبُو هُريرةُ أمامَ الدَّار منتظراً، وعندما ارتدتْ أُمه ثيابها وخمارهَا خرجتْ وهى تقولَ: أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأن مُحمداً عَبدهُ ورسُوله.

وهَتفُ أبو هريرةُ: الله أكبر! وراحَ يُقبَلُ أمهُ بفرحة طَاغية وهو يُردِّد: الحمدُ لله. لقد دعَا النبىُ لك يا أُمى وأجَابَ الله دَعوْتهُ.

وعادَ أبو هريرةَ مُسْرعاً إلى رسَول الله وهو يَبْكى من الفَرحة ودَخل عَلى النبى هو يقولُ:

- أبْشر يا رسولَ الله قَد أجَابَ اللهُ دعوتكَ. قد هَدى اللهُ أُمَّ أى هريرة إلى الإسلام.

ثم قال: يا رسُولَ الله أُدْعُ اللهَ أن يُجيِّبنى وأُمى إلى المؤمنينَ والمؤمنات.

فقال النبىُّ: اللهَّم حَبِّبْ عَبْدكَ هذا وأُمَّهُ إلى كل مُومن ومُؤْمنة.

وعَاشَ أبو هريرةَ فَقيراً صَابراً على فَقْره، مُؤْثراً نَعيمَ الآخرة على نعيم الدُّنيا.

وكان مُلازماً للنَّبى فى المسَجد يتعَّلم العلمَ، ويَحفظُ أحاديثَ الرسول وكَلامه، وكان لا يَجدُ عَشاءَهُ أحياناً، ويطوى نهاره جائعاً.

خرجَ ذاتَ يوم من بيته إلى المسجد ساعةَ الظهيرة هو يتلوى من الجوُع، وهُناك وجَد نَفَراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلمَ، فسألوه: ما الذى أخرجك هذه السَاعة يا أبا هريرةَ؟

قال: واللَّه ما أخَرجنْى إلا الجُوعُ!

قَالوُا: ونَحنُ واللَّه ما أخَرْجنا إلا الجُوعُ.

قالَ أبو هريرة لهم: هَيَّا بنا إلى رَسُول الله.

واستقبلهم النبىُّ مُرحباً، ودَعا بَطبق فيه تَمْر، فأعطى كُلَّ رجل منهم تَمرتين وقالَ: كُلوا هاتين التَّمرتين، واشربوا عليهما من الماء، وستَشْبعون بإذن الله.

فأكل أبو هريرة تمرةً، وأخْفى الثانيةَ فى جَيْبه، فرآهُ النَّبىُ، وسأله: لمَ أبقيتَ هذه التَّمرة يا أبا هريرة؟

فقال: أبقيتُها لأُمى.

فَضحكَ النبىُّ وقالَ: كُلْها، وسأُعطيكَ لأُمكَ تَمرتين.

***

وظَلَّ أبو هريرة يَبْحثُ عن عَمل يرتزقَ منهُ حتى وَجدهُ أخيراً عند إمرأة عربية تُدعى «بُسْرةُ بنت غَزْوان». وكان يَعملُ عندها فى مُقابل طعَامه وكسَائه وطعامَ أُمِّه، حَيثُ يخدمُ قومها إذا نَزلوا ضُيوفاً عليها، ويَحْدَوُ لإبلهمَ إذا ركبوا ورَحلوا.

وحَمدَ الله على أن يَسَّرَ له عَملاً يقيه مُرَّ السُّؤال وألَم الجُوع.

وعَاش قانعاً باليسير من الرِّزق، وشَغُوفاً بالعلم وراغباً فى حفْظ أحاديث النبىَ. ولاحَظتْ «بُسْرُة» عَلى أبى هريرة سُرعةَ بَديهته، وقُوَّة ذاكرته وشدَّةَ إيمانه بربِّه، كما أعْجبها منه عُلُوَّ همَّته فى أداء عمَله وفى حفْظ كتاب الله، وأحَاديثَ الرسُول. فأحَبّتهُ وتَزَوجتْه، وعَاشَ مع زَوجتَه هَانئاً قريرَ العين.

دَخل النبى ذَاتَ يوم المسجد فوجدَ أبا هريرة وزيدَ بن ثابتَ ورجُلاً ثالثاً يَذكُرون اللهَ ويَدعُونه، فألقى عليهم السَّلامَ، ثم جَلسَ بينهم، فسكتُوا!

فقال النبىُ لهم: عُودوا إلى الذى كُنتم فيه.

فقال الرجلان: اللهمّ إنا نسألكَ من فَضْلِكَ العظيم.

فقالَ رسولُ الله: آمين.

ورَفعَ أبُو هريرة يدهُ وقال: اللهمَّ إنى أسْألُكَ ما سألكَ صاحباى وأسألك علماً لا يُنْسَى.

فقال النبى: آمين.

فقالَ زيدُ وصَاحبهُ: يا رسولَ الله، ونحنُ نسأل الله علماً لا يُنْسَى.

فقال النبى: سبقكم بها الغُلامُ الدُّوسيُّ!

***

ومات رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ويَحزنُ أبو هريرة على فراقه مثلما يَحزُن كُلُّ الصَحابة. ويَلى الخلافةَ أبو بكر الصِّديق، ويقاتلُ أبو هريرةَ مع المسلمين فى حُروبِ الرِّدة.

كان أبو هريرة كريماً يأتيه الضَّيفُ من إخوانه فيبعثُ إلى زوجته أو إلى أُمه، فتأتيَه إحداهما بالطَّعام ويَضعهُ بين أيديهم. ويتذكرُ أيامَ الفَقْرِ والجُوعَ فيصيحُ فجأةً: اللهُ أكبر!

فيتعجبَ الضُّيوفُ ويسألونَ بدهشة: ما لكَ يا أبا هريرةَ؟!

فيقولُ: الحمدُ لله الذى أشْبعنا من الخبزِ بعد أن كانَ طعَامنا الأسودين.. التَّمرُ والماءُ.

خرجَ أبو هريرة فى هَدْأة الليل يَسيرُ فى شوارع المدينة مُفْكراً، يردِّدُ فى سِرِّه أذكارَ المساء.. «أمْسَينا وأَمسى المُلْكُ لله، والحمدُ لله لا إله إلا

هُو واليه المصيرُ . اللهم إنى أمْسيتُ منكَ فى نعمة وعافية وستْر، فأتمَّ علىَّ نعمتكَ وعافيتكَ وستركَ فى الدُّنيا والآخرة».

وهُنا تذكر أبو هريرة أيامَ الفقرِ والحرمانِ والجُوعِ . . فأطلقَ صَيحةً عاليةً: اللهُ أكبر!

ويَسمعهُ رجلُ فينزلُ عن بعيرِه ويأتيه مُسْرِعاً، مَدْهُوشاً: مَنْ؟! . . أبو هريرة . . ما هذا التكبيرُ؟!

فيقول أبو هريرة: شُكْرُ . .

الرجلُ: عَلى ماذا؟

أبو هريرة: كنتُ أجيراً لبُسْرهَ بنت غَزْوانَ، فَجعلَها اللهُ زوجةً لى، وأنا أحْمدُ اللهَ على نعمة الغَنى بعد فَقْرٍ.

وأصبحَ أبو هريرة يجلسُ فى المسجد النبوىِّ إلى جانب الحجرةُ المُشرفة يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيأتيه طُلاب العلمْ من كل مكان يستمعون إليه ويكتبونَ عنهُ.

وماتَ أبو بكر الصِّديق، وَولى الخلافةَ عُمر بن الخطاب، فولاهُ إمارةَ البَحْرين، فمكثَ أبو هريرة هُناكَ مُدةً ينشرُ العلمَ، ويُصلى بالنَّاس، ويُتاجرُ بماله حتى أصْبحَ لديه عَشْرةُ آلاف درْهم.

وعَلمَ أميرُ المؤمنين بذلك فغَضبَ ودعَاهُ إلى المَدينة، وسأله عُمر: يا عَدُو الله وَعدْو كتابه. أسرقَتْ مالَ الله؟

قال أبو هريرة وَاثقاً غَير غاضبٍ: والله ما أنا بعدوٍ لله ولا عَدوٍ

لكتابه، لكنى عدوُ من عاداهما، ولا أنا مَنْ يَسرقُ مالَ الله.

فقال عمر: فمن أين اجتمعتْ لكَ عشرةُ آلاف درهمٍ؟

فقال: خَيْلٌ لى تَنَاسلتْ، وعَطايا تجمَّعت، وكنَتُ أتجرُ بمالى فأربحُ.

قال عمر: أظَلَمتَ أحداً؟

قال أبو هريرة: لا.

قال عُمر: خُذ رأسَ مالك ورزقكَ، واجعلِ الآخرُ فى بيت مال المُسلمين.

أبو هريرةَ: سَمْعاً وطاعةً يا أمير المؤمنين.

وخَرجَ أبو هريرة وهو يُردِّد: اللهَّم اغْفر لأميرِ المؤُمنين، بعثَنى للإمارة وأنا لها كَارهٌ، ونَزَعنى منها وَقْد أحَبَبْتُها.

مَشَى أبو هريرةَ وَانياً حَزيناً حتى وَصَل إلى بيت أُمَّه، ووقفَ على بابها وقالَ: السَّلامُ عليك يا أمى ورحمةُ الله.

فقالتْ: وعليكَ السلام يا بُنى ورحمة الله.

فقبَّلُ رأسها وهو يقُولُ: رَحمك اللهُ كما رَبَّيتنى صَغيراً.

قالتْ الأمُّ: رَحمكَ الله يا بُنىَّ كما بَرَيتنى كبيراً.

وتذَّكرَ أبو هُريرة كلامَ حبيبه رسَولَ الله حين سألهُ: ما تأمرنى؟

فقال النبى له: برَّ أُمكَ.

وراح يُردِّدُ فى سرَّه: نعمَ.. برُّ أُمى بابُ من أبواب الجنة.

وصلَ أبو هريرةُ إلى دَاره وهو غَارقُ فى التفكير والأسَى.

وألقى السَّلامَ على آل بيته، فجاءتُه ابنتهُ تَمشْى على استحياء، ففهم أنها تُريدُ شَيْئاً فسألَها: ما لَكِ يا بُنَيَّتى؟

قالتْ بصوت واهَن: يا أبت إن البَنات َيُعيرننى.

فسألها مُتعجباً: يُعيرنك.. بماذا؟!

قالتْ: قلن لى لِمَ لا يُحليك أبوُك بالذَّهب؟

ربَّتَ أبو هريرة على ابنته وقبَّل جَبينها فَتَحدرتْ من عينه دَمْعةً مَسَحها على عَجَل ثم قالَ لها: يا بُنيةُ لا تَبْتئسى.. قولى لهن إن أبى يخشى علىَّ حَرَّ الذَّهب.

ألْقَت الفتاةُ برأسِها فى حُضنِ أبيها وهى تَشْعُر بدفء الإيمان وسُموِّ التَّقوى.

***

أرسَلَ عُمر بن الخطاب إلى أبى هُريرة وعَرضَ عليه الولايةَ من جَديد. فردَّ عليه أبوُ هريرةَ شَاكراً مُعتذراً.

فسأله عُمر: تكرهُ العَملَ، وقد طَلَبَ العَملُ من كان خَيراً منكَ.. يُوسفُ عليه السَّلام؟!.

قال أبو هريرة: يُوسفُ نبىّ ابنُ نَبىّ، وأنا أبو هُريرةُ ابن أمَيمة، وأخْشى من عملكم ثَلاثاً واثْنتَين.

تَبسَّم عمرُ وقال: فهَّلا قُلتَ خَمْساً.

قال أبو هريرة: لا.. أخافُ أن أقولَ بغير علمٍ، وأقْضى بغيرِ

حِلْمٍ، وأن يُضرب ظَهرى، ويُنزع مالَى، ويُشْتَم عِرْضى.

وانتقلَ أبو هريرة مع جُيوش المُسلمينَ فى العراق ودمَشق ومكَثَ هُناكَ مُدةً يُجاهدُ فى سَبيل الله، وكان يُحدث النَّاسَ عما سَمعُه من رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم عَادَ أبو هريرةَ إلى المَدينة فى خلافة عُثمانَ بن عفان.

ويَمرضُ أبو هريرة بعد أن جَاوزَ السبَّعين من عُمره، وتَسهرُ زَوجُته على رعايته، ويلتفُ أولادُه من حَوله، المُحرَّر وعبد الرحمنَ وبلال يُخففون عنه، وتقفُ ابنته المؤمنةُ تنظر إليه بُحَب وعَطْف وتدعوُ الله له بالشِّفاء.

ويزورهُ الصحَّابةُ، ويزورهُ مروانُ بن الحكم والى المدَينة، وراح أبو هريرة يُردِّدُ: «اللهم إنى أُحب لقاءكَ فأحبّ لقائَى»

ويبكى أبو هُريرة وتسألُه ابنتهُ التى يكادُ يَنْخلُع قلبها من الفَزَعَ:

- ما يبْكيكَ يا أبى؟!

فيقولُ لها من بين دُموعه: أنا لا أبكْى يا بُنيتى على دُنياكم هذه، ولكنى أبكىْ لبُعد سَفَري وقَلَّة زَادى!

ويَشتَّدُ شَوقُه للقاء الله فيرددُ:

اللهمَّ إنى أُحبُ لقاءك، فأحبَّ لقائى.

وتخرجُ روُحُه الطاهَرةُ ولسانُه يَلْهجُ بالاستغفار والرَّجاء فى عَفْو الله. ويُدفنُ فى أرْض البقيع مع أصحاب رسَوُل اللهَ الأبرار.

تمت بحمد الله تعالى

مُصْعَبُ بن عُمَير

كَانَ الفَتى يَسيرُ فى شَوارعِ مكةَ يختالُ تيهاً وعُجْباً، يَفوحُ منه عطرٌ أخّاذٌ، ويرتدى ثياباً فاخرةً ونعلاً جَديداً. وصَل الفَتى إلى مُنتَدى الشُبان فَلقى ترحيباً من الجميع وأفسحوا له مكاناً فى صَدْر المجلسِ، فهو يتمتعُ بجمال الرُّوحِ وبهاءِ الطَّلعة، وحُلْوِ اللّسان.

ودار الحديثُ بين الشبان عن أرقِّ الصَّبايا وأجْمل الفتيات، ثُمَّ انتقلَ إلى أعْذب ما كَتب الشُّعراء فى وَصْف الجمال والحُب. وَكان الشبانُ يفتحون قُلوبهم لما يقولهُ صاحبُ المظهرِ الأنيقَ والعقلُ الراجح «مصعب بن عُمَيْر».

وكان مَصعبُ يشعرْ بفرحة مبعثها ذلكَ الإحتفاءُ الشديدُ به. لذا كان يُرسل من حين لآخرَ ضحكةً مهذبةً أو التفاتةً ذكيةً. قال أحد الشبانُ: لعلكم سمعتم عن مُحمدِ الأمين والدينِ الجديد؟!

وقال آخرُ: إنه يزعمْ انه نبىٌ مرسَلٌ من عند الله لهدايةِ الناسِ، وترك عبادة الأصنامِ.

وقال ثالثُ: إن أتباعهُ الآن قلةً. وهُم من الفقراء، وأراهم يجتمعونَ بعيداً عن أعين الناسِ فى دَار الأرقمِ بن أبى الأرقم هناك عند جبل الصَّفا.

وطالَ الجدلُ عن محمدٍ والدين الجديد، وموقفُ قريشٍ منه ومن

دعوته وكان مُصْعبٌ يُصْغى لما يقوله الفتيانُ دون أن يُعَقب .

وانفضَّ السَّامرُ وخرجَ مُصعب فى هَدْأة الليل عائداً إلى بيته ، وفى الطريق كان يفكرُ فيما سمعهُ من أصحابه : «إن محمداً ومن آمنَ بدعوته يجتمعونَ فى دار الأرقم بعيداً عن فُضُول قريشٍ وأذاها . . ويزعمُ أنه نبىٌ مرسلٌ من الله لهداية البشر» .

ذَهبَ مُصعب فى مساء اليوم التالى إلى جبل الصَّفا ، وعندما اقتربَ من دار الأرقم سمعَ ترتيلاً شجياً جعلهُ ينتظرُ لحظةً ويُصْغى فى خُشُوع . . الكَلماتُ مَرصوفةٌ رصفاً رائعاً ، والعباراتُ لها إيقاعٌ جميلٌ لا تَرْقَى إليها لغةُ البشر .

رَدَّدَ مُصْعب فى نفسه : إن هذا الكلامَ ليس بالشِّعر !

جلسَ مُصعب بين يدى النَّبى وهو يَشْعرُ بسكينة وراحة لا يدرى مبعثهما . ربما كانَ مَبْعثهما مُنَاخَ الإيمانِ وصَدَى القُرآن الذى يتردَّدُ فى أركان الدَّار .

سَمعَ مصعبٌ آيات القرآن من النَّبى فخَشعَ لها قلبهُ ، ورأى المسلمونَ يُصلون فأخذتهُ الفرحةُ والدَّهشةُ معاً . وضعَ النبى يده على صَدْر الفتى فسكنتْ جوارحهُ واطمأن قلبهُ وراح يُردد آيات القرآن كما سمعها بسهولة ويُسْر .

انطلقَ مُصْعبٌ عائداً إلى داره الفسيحة تَغْمرهُ الفرحةُ ، ويشعرُ بخفة كأنهُ طائرٌ جميلٌ يحلقُ بجناحيه فوق نهرٍ ، فى يوم غيرِ عاصف .

ويدخلُ الفتى دارهم الفسيحةُ التى تَغُصُّ بالجوارى والعبيد، وتسأله أُمه التى كانتْ تجلسُ فى باحة الدَّار: طابَ مساؤُكَ يا ولدى.. أين كُنتَ؟، ومالكَ الليلةُ تبدو ساهماً حالماً منتشياً؟!، فيقول: كُنتُ أتسامرُ يا أمى مع صفوةِ الرِّفاق وخيرةِ الشُّبان.

نادت الأمُ على جارية: جَهِّزى بسرعة الطعامَ لسيدك.

وسألتهُ الجاريةُ: أينَ أضعُ لك طعامكَ يا سيدى؟

أشارَ إليها مُصعبُ بيده قائلاً: لَستُ جائعاً.. يكفينى ما تناولتهُ هذه الليلةَ.. دعونى آخذُ قسْطاً من الراحة.

دخلَ الفتى غُرفتهُ الفارهةُ، وتمدَّدَ على فراشه الوثير هادئاً مُنْتشياً، يُحدِّقُ ببصرهِ فى سَقْفِ الغُرفةِ ويسترجعُ ما رآهُ وما سَمعهُ فى دار الأرقم.

***

أصبحَ مُصعبُ يخرجُ من بيته فى الظَّلام خشيةَ أن يراهُ أحدٌ، ويتردد كل مساء على دار الأرقم، يسَمعُ القرآنَ، ويُصلى لله. وكانت «خنَّاس بنتُ مالك» أم مصعب سيدةً مُهابةً إلى حَدِّ الرَّهبة، لها شخصيةٌ قويةٌ، وكلَمةُ لا تُردُّ، ويُعملُ لها فى الدار ألفُ حسابُ وكان العبيدُ والجوارى يَرْجُفون عند سماع صوتها. وكان مُصعبُ لا يَخْشى فى الدنيا ـ بعد الله ـ سوى ثورةَ أمه.

كَتَم مُصعبُ إسلامهُ عن أمه وعن عَشيرته تفادياً للمُواجهةِ وفى

تلك الأيام كانتْ أعْينُ قريش وآذانها تتابعُ كل تحركات مُحمد وأصحابه، وتُزيقُ أتباعه الفقراءُ والمستضعفينَ سُوءَ العذاب.

وذاتَ يوم رأى عُثمانُ بن طلحةَ «مُصعبَ» وهو يدخلُ خُفيةً دارَ الأرقم، فلم يُصدق عينيه وسأل نفسه:

- معقولٌ؟!.. أيكونُ مصعب ـ الفتى المدللُ ـ قد أسلَمَ وتبع محمداً وأصحابُه؟!

وعندما رآهُ مرةً أخرى في إحدى شعاب مكةَ مع النبي وصحبه وتأكد له الأمرُ، ذهبَ إلى أُمه مُسْرعاً يُخبرها بما رآهُ. وهنا طارَ صَوابُ الأم. وثارتْ، ونادتْ على ابنها بلهجة قاسية:

مُصعب.. هل صحيحٌ ما سمعته عنكَ؟

- وماذا سَمعْتِ يا أُمي؟

- سَمعتُ أنَّكَ صَبَأتَ وتركتَ اللاتَ والعُزَّى ودين آبائك، واتبعتَ مُحمداً.

- نعم يا أُمي.. آمنتُ بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمُحمد رسولاً، وبالقرآن كتاباً مُنَزَّلاً من عند اللهَ، وإن هذا لهوَ الحقُ والله يا أمَّي.

صرختْ الأمُ وهَمَّتْ أن تصفعهُ بلطمة قاسية، ويداها مُشرَّعةٌ تكادُ تهوى بها على وجهه، وعيناها يتطايرُ منها بريقٌ منذرٌ.. لكنها في اللحظة الحاسمة أمسكتْ نفسها تحتَ ضَغْط أُمومتها وصَاحتْ:

- هل فتنكَ مُحمدٌ يا ولدى كما فتنَ فُقراء قُريشٍ؟

- إن ما جاءَ به مُحمدٌ هو الحقُ يا أمى، إنه دينٌ يأمرُ بالمعروف وينهى عن المُنكر، ويُسوِّى بين الناس.

صَاحتْ الأم ساخرةً: يُسوى بين الناس؟!.. أى يجعل العبدَ يتمردُ على سيده، ثم يُصبحُ العبدُ سيداً، والسيدُ عبداً.. هذه فَوْضى.. إسمع يا ولدى لا تجادلنى فى هذا الأمر. إننى آمركَ، عُدْ إلى دينك وإلى دين آبائكَ وإلا سينالك منى ما تكرهُ. فقال مصعب:

- لقد اطمأنَّ قلبى للإسلامِ، ولن أرجعَ عن ذلك يا أمى.

- هكذا؟!.. تتحدى أمك، وتتحدى عشيرتكَ.. هذا واللاتَ والعُزَّى لن يكونَ، وأمرتْ العبيدَ بحبسه فى غُرفة بالدار.

وأصبحَ مُصعبٌ أسيراً فى بيته يتلقى طعامَهُ وشرابُه فى أوقات مَعْدودة، وحُرمَ من لقاء النبى وأصحابه. ظَلَّ مُصعب بن عُميرَ فى خُلْوته حَبيساً يَتلو القُرآنَ ويُصلى لله. وَكان بعضُ المسلمين فى مكةَ يلقونَ من عشائرهم التَّعذيبَ، ورأى النبى ما عليه أصحابُهُ من شدة فأذن لهم فى الهجْرة إلى أرضِ الحبشة، لأن فيها ملكاً لا يُظلم عَندهُ أحدٌ، حتى يأذنَ اللهُ بالفرجِ.

وسمعَ مُصعب عن هجرة بعض المؤمنين إلى الحَبشة، فاحتالَ لنفسه وغَافَلَ أمه وتسلَّل فى ليلة الهجرة ولحقَ بإخوانه.

نَزلَ المُسلمون وفيهم مُصعب بن عميرأرضَ الحبشة ودخلوا على

الملك «النجاشيّ» واستجاروا به فأجارهم وأكرمَ وفَادتَهُم. فعاشُوا هُناك فى أمان، يأكلون ما يأكلُ الناسُ، ويعملون فى الزراعة والرعى ويُصلُّون لله. وكانتْ أرضُ الحبشة زاخرةً بالخيرات.. ماءٌ رقراقٌ، وخُضرةٌ تَسُرُّ الناظرينَ، وأناسٌ بُسطَاءُ طيبون.

وعاشَ مُصعب هناكَ زاهداً فى الدنيا، ملبسهُ بسيطٌ، ومطعمه يَسيرٌ، ولسانه رَطْبٌ بذكر الله. وفى ظِّل شجرة جلسَ ساهماً، يتذكر أمه وإخوته، ودارهم الفسيحةُ التى تَرْفُل فى التعليم، ويتذكر أيامَ الطفولة والصبِّا والديباجَ والحريرَ والعُطورَ، والصبايا اللائى كُنَّ يتحرَّقنَ شوقاً إلى رؤيته أو سماع صوته وهو لا يعبأ بهن، أو يتظاهر بذلك.

نظرَ مُصْعبُ إلى قميصه المُرقَّع الذى تغَّير لونهُ وأخذَ يُردد، الحمد لله، رب أسألك رضاكَ. وَأخذهَ الحنين إلى رؤية النبى ﷺ وسماع القرآن بصوته.

عاد مُصعبُ بن عمير والذين معه بعد مدة إلى مكة، ولكنهم وجدوا الأحْوال فيها قد زادتْ سُوءاً، وأن المشركينَ يسومون المُسلمين سُوءَ العذاب.

والتقى مصعب بأمه التى هَدَّها الحزنُ على فراق ولدها وتَبدُّل حاله وحَاولتْ من جديد اقناعهُ وردَّه عن الإسلامَ بالتَّودد إليه لكنَ دُونَ جَدوى، فثارتْ وأمرَتْ بحبسه حتى لا يلحقَ بالنبى وأتباعه.

وهنا يثورُ لأول مرة ويُقسم ليَقتلنّ كل من تستعين به أمه على حبسه. وقفتُ الأمُ أمامَ عِناد إبنها حائرةً عاجزةً حزينةَ.

وعندما عزمَ نفر من المسلمين على الهجرة مرةً ثانيةً إلى الحبشة، أعَدَّ مصعبُ نفسهُ للسفر، وفى المساء وقفَ الفَتَى يُودِّعُ أمه باكياً، وأمه تسألهُ بلوعة وأسَى: لماذَا الرَّحيلُ يا وَلدى.. لماذا تتركُ هذه النِّعم إلى الفقرِ والحرمَانِ والشَّقاء؟!

فيجيبها الفتى بهدوءٍ ويقينٍ: يا أمى نعيمُ الدنيا زائلٌ، وما عندَ الله خيرٌ وأبقَى.

وهنا تثورُ أمُه وتصيحُ: إذهبْ.. إذهبْ لشأنكَ لقد أعييتنى، ولم أعُدْ لك أُمّاً!

فيقتربُ منها الفتى مُشْفقاً ويحدثها بتودد: يا أُمى والله إنِّى أُحبك وإنى لك ناصحٌ، وعليك شَفوقٌ، فاشهدِى أنه لا إله إلاَ اللهُ، وأنَ مُحمداً رَسولُ الله.

فتصيحُ الأمُ غاضبةً: قسماً بالثواقب، لا أدخلُ فى دينكَ فَيُزْرى برأيى. ويَضْعُف عقلى.

وقفَ مُصعبُ بن عُمير حائراً حَزيناً، وتتحدَّرُ من عينه دمعةً فيمسَحها على عَجَل، ويُقبِّلُ أمهُ بحنانٍ وشَفَقةٍ، ويخرجَ مَن الدار يحملُ شوقاً كبيراً وزاداً يسيراً.

هاجرَ مُصعبُ بن عُمير مع نفر من المُسلمينَ إلى الحبشة، وهُناك عَملَ بفلاحة الأرض، وعاشَ المُسلمون فى الحبشة فى أمان. لكن قُريشَ أرسلتَ عمرو بن العاص إلى النَجاشىِّ ملك الحَبشة وطلَّبَ منه تسليم الفارِّين من مكة، ورفضَ الملكُ تسليمهم عندما علم أنهم على حَق.

وبعد حين عاد النبى إلى مكةَ، وأصبحَ يُلازم النبى كَظلِّه، وكان النبى يُحبه ويقولُ لمن حوله: لقد رأيتُ مُصعباً هذا وما بمكة فَتىً أنعم عند أبويه منه، ثم تركَ ذلك كله حباً لله ولرسوله.

وكان مُصعبُ يرددُ: الحمدُ لله على نعمة الإسلام.

جاءَ وفدٌ من المدينة يطوفونَ بالكعبة فى مَوسمَ الحج، والتقى الوفدُ بالنبى ﷺ، وعَرض عليهم النبى الإسلامَ، وتَلَى عليهم بعضَ آيات القُرآن، فقبلوا به، وشرحَ الله صُدورهم للدين الجديد.

وفى العام التالى: أقَبْلَ من المدينة اثا عشر رجلاً وامرأتان فى مَوسُم الحج، يبايعون الرسولَ ويطلبون منه أن يُرسل معهم من يقرأُ لهم القرآنَ ويُعلمهم تعاليمَ الإسلام ويُصلى بهم. فأرسلَ النبىُّ مُصْعبَ بن عُمير مع هذا الوفد. وفرحَ مُصْعبْ. إن النبى اختاره ليكون داعياً إلى اللهً فى المدينة وسفيراً للإسلام، إنه شرفٌ عظيمٌ.

نزل مُصْعبٌ بن عُمَير المدينةَ فى ضيافة «أسعد بن زُرارة» وكان أسعدُ يخرج مع مصعبٍ إلى القبائلِ والمجالسِ يدعُونَ الناسَ إلى

الإسلامِ، ويتلو مصعب عليهم القرآنَ ويوضحُ لهم قواعد الدِّين.

وعاد مُصعبُ إلى مكةَ في مَوْسمِ الحج التالي ومعه أكثرُ من سبعينَ من رجال ونساء قبيلتي الأوس والخَزرج، كانوا قد أعلنوا إسلامهُم. وإجتمع بهم النبيُّ ﷺ عند العقبة، وبايعهم على ألا يُشركوا بالله شَيئاً وأن يَعْملوا صَالحاً وأن ينتهوا عن فعْلِ المُنكر.

وبفضل الدُخول في الإسلام انتهتْ الحُروبُ الدائمةُ التي كانت بين قبيلتي الأوس والخزَرج في المدينَة، وأصبحوا إخواناً متحابين، وأحبوا النبي حُباً كبيراً، وأرسَلوا إليه مَن يدعوهُ إلى الهجرة إليهم والإقامة بينهم في المدينة.

أذنَ النبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة، فتركَ كثيرٌ من المُسلمينَ ديارهُم وأمَوالهم في مكةَ وهاجروا طاعةً لله، وحُباً في رسول الله. وبعد حين يهاجر النبي وصاحبه أبو بكر الصديق إلى المدينة، وهُناك يفرحُ المؤمنونَ، وتبدأُ مرحلةٌ جديدةٌ في تأسيسِ دولةِ الإسلامِ.

وكان لابدَّ من المواجهة بين المشركين في قريش وبين المؤمنين في المدينة، فكانت معركةُ بدرِ الكَبُرى، وكان مُصعبُ بنُ عُمَيرٍ فيها حَاملاً الرَّايةَ.

وانتصرَ المسُلمونَ بفضل الله، وفرَّ المُشْركونَ من أرض المَعْركة، وقُتل منهم سبعونَ رجلاً، وأُسَر مثْلهُم. وعاد المُسلمونَ من أرضَ المعركة يرددون كلمات التكبير، وتَزوج مصعب بن عمير من إمرأةٍ

مؤمنة من نساء المدينة ، وحزنتْ قريشٌ على قَتْلاها ، وافتدتْ أسْراها . وعقدَ أبو سفيان مجلسَ حرب ، عبّأ فيه رجالَهُ وأرادَ الإنتقامَ . فجهّز جَيشاً هائلاً من ثلاثة آلاف مُقاتل ، والتقى الجيشان عند جبل أحد ، ووقف النبي ﷺ ينظّم صفوفَ جيش المُسلمين ، ويُصدرُ تعليماته للجنود ، ويُحذّر الرُّماةَ من فوق الجبل بعَدم مُغادرة أماكنهم .

ودارتْ المعركةُ ، وكان النَّصر للمسلمن ، وانسحبَ المُشركون من أرض القتال ، ورأى الرُّماة ذلك فظنوا أن المعركة قد انتهت ، فتركَ معظمَهم أماكنَهم وأسرعُوا لجمعِ الغنائم .

كانتْ الرايةُ بيد مصعب بن عُمير . ولما رأى المُشركون نزُول الرُّماة أسرعوا عائدين من وراء الجبل وصوّبُوا سهامهم ورماحُهم نحوَ المُسلمين ، فأصابوا منهم عدداً ، وهُنالك اضطربَ جيشُ المسلمين ، وتحوّلَ النصرُ إلى هزيمة .

ورأى مُصعبُ بن عمير المشركين يُركزون هُجومَهمُ على رسول الله ، فجعل نفسه درْعاً لصدِّ هجومهم وراحَ يصيح كالزئير : الله أكبرُ . . وما مُحمدٌ إلاَ رسولٌ قد خلَتْ من قبله الرُّسلُ .

كان مصعبُ يحملُ الرَّايةَ بشماله والسَّيفَ بيمينه ويقاتلُ بشهامة ، وأقبلُ «ابن قَميئة» شاهراً سيفه فضَربهُ على يده فَقطعها ، فتناولَ مصعبُ الرَّايةَ بيمينهِ بسرعة وهو يصيح بتحد : وما مُحمدُ إلا رسولٌ قد خلتْ من قبله الرُّسلُ . فضْرب الفارسُ اليدَ اليمنى لمصعب وكادتْ

الرايةُ تسقطُ منه ويدوسها الجندُ، فضمَّها مُصْعبُ بعَضُديه وهو يصرخُ والدِّماء تنهمرُ من يديه: « وما مُحمدُ إلا رسولٌ. فَحمل الفَارسُ الرُّمحَ وأنفذهُ فى صدره بوحشية. فوقعَ مصْعبُ، وسقطتْ الرايةُ على الأرض وداسها الجُندُ، والدِّماءُ الذكيةُ تسيلُ من جسده على الثَّرى الطاهرِ، ووجههُ مُضَمخٌ فى التراب فى سجدة أبدية.

وانتهتْ الحربُ، وغادر المُشركونَ المكانَ، وراح النَّبى يتفقدُ أرضَ المعركة ليرى شُهداء المسلمين، وعند جُثْمان مُصعب وقَفَ النبىُ صامتاً حزيناً، فتحدرتْ من عينه دمعةٌ وهو يُرددُ: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾ [الأحزاب : ٢٣].

كان الصحابةُ يُكفنون شُهداءَ الحرب ويَدْفنونهم، ولم يكُن لمصعبَ ابن عُمير إلا ثوبٌ بسيطٌ، إذا غطُّوا رأسهُ خرجتْ رجلاه وإذا غطُّوا رجليه ظهرَتْ رأسُه، فسألوا النبى ﷺ: ماذا نفعلُ؟

قال النبى: غطوا رأسهُ واجعلوا على رِجْله الإذْخَر (عُشبٌ).

ودُفنَ مُصعبُ بن عُمَير ـ أول سفير للدعوة الإسلامية ـ مع إخوانه الشُهداء. ووقفَ النبىُ ﷺ والصحابةُ يُودِّعونَ إخوانهم الشَّجعانُ فى حُزنٍ عَميقٍ. والنبى يُخاطبهم كأنهم أحياءُ:

«إنَ رسولَ الله يَشهدُ أنكم الشُّهداءُ عند الله يومَ القيامه».

تمت بحمد الله

مقدمة ٣

خالد بن الوليد ٤

عمرو بن العاص ١٨

سعد بن أبى وقاص ٣٠

حمزة بن عبد المطلب ٤٣

عبد الله بن مسعود ٤٨

عمار بن ياسر ٥٤

أبو الدرداء ٥٩

سلمان الفارسى ٦٤

بلال بن رباح ٧٥

أبوذر الغفارى ٨٥

عبد الرحمن بن صخر ٩٧

مصعب بن عمير ١٠٩

فهرس ١٢٠